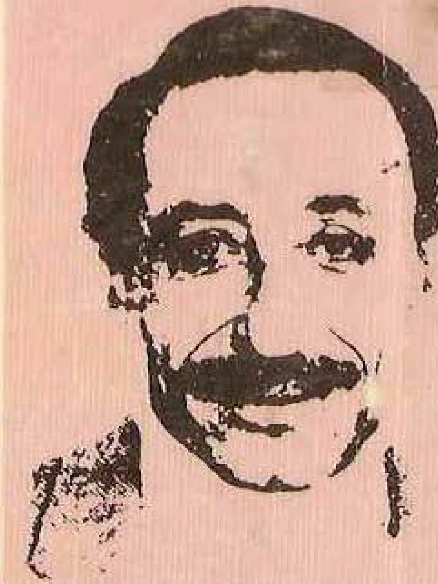
صالح مرسي



الأعمال الكاملة

كنت جاسوساً في اسرائيل

# رأفت الهجان

الطبعة الثانية

١

صالح مرسى



كنت جاسوسا فى إسرائيل

# رأفت الهجان

إلى شباب مصر

صلاح نصر



الطبعة الثانية

١٩٨٨

الناشر

ابوللو للنشر والتوزيع

١٦ شارع البورصه ــ التوفيقية ــ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ــ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

# كلمـــة الناشــر

**عزيزى القارىء**

تواعدنا يوم قدمت لك « الحفَّار » أن أتبعه بقصص أخرى حددتها بأنها « الصعـود إلى الهـاوية » « ثم دموع فى عيون وقحة » وهي أعمال للأستـاذ صالح مرسي سبق نشرها وعرضها كفيلم سينمائى ومسلسل تلفزيونى وكنت أراها ـ كما ذكرت في كلمتى لك بالحفار ـ شعاع ضوء يكشف لك حقيقة الأسطوره التى روجت لها إسرائيل عن مخابراتها التى لاتقُهر ؟ !

يومها كان الأستاذ « صالح مرسي » يخطط لأعمال أدبية أخري بعيدا عن ميدان صراع المخابرات بعد أن قضى أكثر من عام يُعايِش أحداث « الحفار » من خلال الوثائق ولقاءات مع عدد من الأبطال الذين خططوا ونفـذوا عملية نسف الحفـار الإسرائيلى . . وحـاولت عبثـا أن أحرضه ليبحث عن عمليات أخـري يقـدمها للقارىء لكنه رفض بإصرار لأن معاناته فى كتابة الحفار أجهدته بعد أن ظل مشدود الأعصاب لأكثر من عام ، فهـو لايكتب الأحـداث لكنه يعيشها بكل التفاصيل المثيرة مع أبطالها . . . قضى كل لحظة من هذا العام ترتجف أعصابه مع كل موقف مثـير ، ومـوجات الخوف والفزع والفرح والترقب تتدافع مع كل كلمة يقرؤها أو يسمعها أو يكتبها . . . لهذا قرر أن يبتعد لفترة عن البحث فى ملفات المخابرات ، كما أنه أراد أن يعيد تقديم نفسه للقارىء « روائيا » « وقـاصا » صدرت له العديد من الروايات والقصص عن البحر وعن هموم البسطاء . . . وأخذنا بالفعل نعد لإصدار هذه الأعمال مع وعد بأن





الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

ننشر معهـا « الصعود إلي الهاوية » « ودموع في عيون وقحة » . . . ولم يمض وقت حتى انقطعت أخبار الأستاذ صالح عنى لأيام ثم أسابيع . .

وأخيرا ذهبت إليه لأجده غارقا فى أكوام من الوثائق وبجانبه جهاز تسجيـل يديـره ليسمـع صوت عزيـز الجبـالي يحكى قصـة « رأفت الهجـان » . . . وجـدت الأستـاذ صالـح انسانا آخر . . . اكلمه فلا ينصت . . . كان مشـدود الأعصـاب تمامـا لكـل كلمـة تأتيه من التسجيـلات التى ملأت أكثر من ثلاثين شريطا . . . ثم يعود ليقلب الوثائق . . . ويحملق في بعض الصور . . .

انتزعته من هذه الحالة بعد جهد جهيد لأعرف أنه يعيش قصة بطولة نادرة . . . إنسـان مصري عربى استـطاع أن يخترق الأمن الإسرائيلى للنخـاع ، وأن يعيش في إسرائيل وقـريبا من مراكز صنع القرار ليقدم البرهان العملى علي أن الإنسان المصري العربى يملك القدرة الفذه علي تحقيق النصر الباهر في ميدان المخابرات . . . وبعد شهور المعاناة بدأت قصة « رأفت الهجان » تأخذ طريقها للنشر . . . وأضيفت حلقة رائعة من حلقـات انتصـار الإنسان المصري العربى في ميدان حرب الذكاء وانكشفت بفضل الله أولا ـ وبفضل الرجال أسطورة مخابرات العدو الإسرائيلى . .

وأخيرا هذا هو « **رأفت الهجان** » بين يديك . . لا أقول « كتابا » لكنه الإنسان المصري العربى ستحس بنبض قلبه في كل كلمة . . . وتلفح وجهـك أنفـاسـه الحرة . . . وسيصبح آخر الأمر صورة مشرقة تعيش معك ، وتجعلك كلما تذكرت العدو الإسرائيلى تشمخ برأسك فخرا . . . وتتحسس سلاحك دائما لتكون يقظا لغدر هذا العدو الذي لن يتوقف عن تدبير المؤامرات للعدوان علي كل ماهو عربى وكل ماهو مسلم . . .

**« السيد الغضبان »**

## حديث خاص
## حول قضية عامة

●● فى علم المخابرات ، هناك قاعدة عامة تدرس لهؤلاء الذين يخطون خطواتهم الأولى فى هذا الميدان ، هذه القـاعـدة تقـول : لادخـل للعواطف فى العمل !

وهى واحـدة من القواعد الذهبية التى كان الاستاذ « إسماعيل » يلقنها للأجيال الأولى من رجال المخابرات العامة المصرية,. . . والاستاذ « إسماعيل » واحـد من أعـظم اسـاتـذة هذا العلم . . . اسمه ليس « إسماعيل » بطبيعـة الحـال ، ثم . . . هو لم يمارس العمـل كضابط عمليات . . . لكنه رجل وضعته الظروف ـ ظروف بناء مصر من فراغ كان ينخر عظامها ـ فى موقف المواطن الخلّاق ، الذى أصبح عليه ، بين يوم وليلة ، أن يدرس ويتعلم ويبحث ويحقق ويحلل ويتابع ، ثم يتشرب العلم بجهد أسطورى ، كى يسقيه للشباب كالشراب الطهور ! !

« لاتدخل العواطف فى العمل » قاعدة يحتفظ بها رجال المخابرات فى صدورهم احتفاظا يصل الى حد من القسوة - ربما على أنفسهم قبل الآخرين - فوق مايطيقه البشر . . . ذلك أن مثل هؤلاء الرجال ، لايتعاملون مع حقائق ذاتية أو فردية ، ولكنهم يتعاملون مع حقائق عامة . . . حقائق لاتمس أشخاصهم ولاعواطفهم ، وإنما تمس دولهم وشعوبهم وأممهم . . . ولقد يدرب بعضهم نفسه تدريباً شاقاً على مواجهة المآسى والتعامل معها بعقل بارد وقلب ميت . . . ذلك أن خللا بسيطا ووحيدا ، يحدث نتيجة لتدخل العاطفة فى لحظة عشوائية ، قد يدمر عمل سنوات طويلة من التدبير والسهر والصبر ، وقد يجر على الأمة من المخاطر ـ مالا يطيقه ضمير فرد ، أو حتى ضمير جهاز بأكمله ! !

غير أن رجل المخابرات ، أيا ماكان عقله بارداً وقلبه ميتا ، فهو فى البداية والنهاية إنسان . . . إنسان له قلب يخفق أراد أم لم يرد ، ووجدان - مهما حاول صياغته - ينتمى بالضرورة الى مايسمى بالعاطفة . . . هو إنسان قد يستطيع لعام ، أو عامين ، أو ثلاثة . . . وربما لعشرين عاماً كاملة - كما فى قصتنا هذه - أن يتعامل بهذا العقل البارد والقلب الميت مع « مادته » أو « موضوعه » أو « قضيته » ، يبذل كل مايستطيع من جهد لكيلا يخطىء خطأ واحداً ، ولايسمح بحال من الأحوال ، لعواطفه التى قد تجيش وتفور وتضطرم فى صدره ، أن تتدخل ولو لثانية واحدة ، فيما يجب ألا تتدخل فيه . . . قد يستطيع رجل المخابرات أن يصنع هذا . . . ولكن ، هل يستطيع أن يتحكم فيما لاحكم له عليه ؟ !



هناك قاعدة ذهبية أخرى - لقنها الاستاذ « إسماعيل » للرجال أيضا - تقول :

« إياك أن تقع فى حب العميل ! »

والعميل هنا هو الجاسوس . . . والجاسوس - رغم بشاعة الكلمة وماتحويه من معان قد تقشعر لها الأبدان - هو فى البداية والنهاية - أيضا - إنسان . . . وهو كانسان ، واحد من ثلاثة أنماط رئيسية استقر عليها رأى جهابذة هذا العلم منذ أن كان التاريخ والمجتمعات والحروب والصراع وحتى يومنا هذا . . . هذه الأنماط الرئيسية هى :

●● إنسان يعمل من أجل المادة .

●● وآخر تستعبده شهواته .

●● وثالث يدفعه المبدأ والعقيدة لركوب المخاطر ! . . . وهذا النوع لايصبح جاسوسا ، بل يطلق عليه اسم « مندوب » .

وقد لايتعاطف المرء مع هذا الذى يبيع نفسه ووطنه من أجل حفنة من المال . . . وقد لايحترم هذا الذى تستعبده شهواته وملذاته وعواطفه الدنيا . . . ولكن كيف - حتى وان كنت رجل مخابرات ذا عقل بارد وقلب ميت - كيف لاتتعاطف مع هذا الذى يضع رأسه على كفه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل - وبلا أدنى مبالغة - كل دقيقة من نهاره وليله ، من أجل خدمة وطنه وأمته وشعبه ؟ !

ان الرجل الذى يترك حياته الآمنة - متطوعا - فى وطنه ووسط عائلته ، كى يخترق مجتمع العدو ، ويزرع نفسه فيه . . . يتدين بدينه ، ويتحدث بلغته ، ويأكل طعامه ، ويشرب شرابة ، ويعيش كما يعيش أعداؤه ، يتظاهر بالفرح لفرحهم ، وبالحزن لحزنهم . . يحتفل معهم

بنصرهم وقلبه يدمى ، ويبكى لهزائمهم وقلبه يرقص طرباً . . . ويتحول من إنسان الى آلة تصوير وآلة تسجيل تحْمِلُ كلتاهما إلى بلاده ، عبر قنوات سرية وأخطار مخيفة ، كل مايستطيع أن يحصل عليه من معلومات وأخبار ، أو مخاطر قائمة أو محتملة. . . يحيا وحيدا حتى النخاع ومن حوله العشرات ، وربما المئات ، يحيطونه بالود والاجلال والاحترام ، يستمعون اليه ، ويُسمعونه من أنبائهم كل مايريد أن يسمعه ، يعيش فى ظل يخشى فى لحظة عمياء أن يغمره الضوء فيفتضح أمره ، ويتأرجح حبل المشنقة فوق رأسه كل ثانية ، يلازمه فى أحلامه ، وفى صحوه . . . مثل هذا الانسان لايصبح جاسوساً ، بل هو بطل من نوع فريد وفذ !

ومن أجل هذا ، فانهم هناك - فى أجهزة المخابرات فى العالم - ينظرون الى هذا النوع من الرجال - أو النساء - على أنهم يتربعون فوق قمة لاتدانيها قمة . . . ذلك أن مايقوم به هؤلاء الأبطال المجهولون . . . هو أرفع درجات الوطنية .

من هؤلاء الأبطال من ذهبت ريحهم وطواهم النسيان مع مايطوى من أسرار الدول والشعوب ... ومنهم من بقى حيا فى « أضابير» ختمت بخاتم السرية المطلقة . . . ذلك أن حياتهم - مهما مضى عليها من خطوات الزمن - هى جزء لايتجزأ من أمن شعوبهم ، يدفنون كسطور على ورق فى أقبية لاتصل إليها يد . . . وتمضى السنون ، وقد تحدث مصادفة - فى عالم لايخضع لقانون المصادفات - وتُفتح الأقبية ، وتخرج الى النور قصة يندر أن يطاولها خيال !

من هؤلاء العظماء السريين : « رأفت الهجان » .



و« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقى ، ليس اسمه فى مصر حيث ولد وعاش وتربى وتشرد وسُجن ، وحيث تعيش أسرته - حتى اليوم - فى لهفة لسماع كلمة عنه . . . حي هو أم ميت ، سجين هو أم طليق ، مشرد هو أم أنه استقر بعد طول ترحال غامض ، يتنقل بين السجون أم أنه ينتقل بين القصور ؟

« رأفت الهجان » ليس اسمه فى مصر ، كما أن « ديفيد شارل سمحون » - وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه - ليس اسمه الذى عرف به فى إسرائيل ، حيث ذهب اليها منذ ثلاثين عاماً كبطل من أبطال الصهيونية ، وغادرها بعد عشرين عاماً كواحد من أصحاب الملايين ، ورجل من رجال أعمالها البارزين !

« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقى ، لكنه الاسم الذى اختاره له صديق عمره ، وطوق نجاته ، والخيط الخفى الذى ارتبط به ارتباط الجنين بحبله السرُّى . . . عشرون عاما وهما يلتقيان فى كل يوم ، يتحدثان ، يتشاجران ، يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ويتناجيان معاً فى حب مصر!!

حدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة ، أو يرى أحدهما الآخر ، دون أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحبر السرى ، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال .

« رأفت الهجان » هو الاسم الذى اختاره له « عزيز الجبالى » - وهذا أيضا ليس اسمه !!! - ضابط المخابرات الذى تعرف عليه وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، ثم فرقهما القدر وقد تخطى الخمسين .

وإذا كان « عزيز الجبـالى » واحـدا من أنجب تلاميذ الاستـاذ «اسماعيل» ،وإذا كان مؤمنا إيمانا قاطعا بالقاعدة الذهبية التى تقول إنه « لادخل للعواطف فى العمل » . . . كما أنه مؤمن أشد مايكون الايمان بالقاعدة الماسية التى تقول : « إياك ان تقع فى حب العميل » فلقد كانت الأوراق التى كتبها « السيد عزيز » عن هذه « العملية » ليست سوى شحنة عاطفية متفجرة ... تلك الأوراق التى قدمت لى فى أحد أيام الصيف الماضى ـ بالتحديد فى يونيو ١٩٨٥ ـ فاعتذرت عن عدم قراءتها لأسباب شخصية ، ثم قدمت لى مرة ثانية وثالثة فى كرم لست أنكره وقد لااستحقه ، واعتذرت أيضا . . .كنت اتملص محاولاً الخروج من شرنقـة هذا النـوع « الجـديد » من الأدب ، وأنا أشعر أنى ـ بما قدمت منه ـ قد أديت واجبى نحو وطنى وأمتى العربية !

غير أنى فى المرة الرابعة . وما إن وقعت عيناى على أولى الكلمات فى تلك الأوراق ، حتى وجدتنى أهوى معها الى هوة بلا قرار . . .وجدتنى أغيب عن الوعى لثلاث ساعات كاملة . . .كانت السطور « ملخصا » كتبه « ضابط الحالة » ـ CASE OFFICER ـ لكنها كانت ترفعنى الى السماء ، ثم تهوى بى الى الأرض فى واقع أسطورى شديد الغرابة . . فى سطور بعينها كانت الـدموع تتفجر من عينى رغما عنى ، وكنت أحاول جاهداً أن أوقفها ، لا لأنى لاأريد البكاء ، ولكن لأنى أريد المتابعة والدمع يمنعنى ... وفى سطور أخرى كنت أصفق كصبى بهره « السجيع » على الشـاشة وقد انتصر على أبطال الشرور . . .وعندما كنت أقـرأ كيف عرض حزب « المـابـاى » الاسرائيلى على « رأفت الهجـان » ، أو « ديفيد شارل سمحون »، أن يرشح نفسه للكنيست



الإسرائيلى ، أحسست بزهو من أنجب عملاقا . . . ثم . . .

ثم يقول « عزيز الجبالى » فى مقدمة تلك الأوراق التى كتبها :

« . . . . . . . . . وأتوقع أن ينبرى البعض فى إسرائيل ـ مدفوعا بالمكابرة والمغالطة ـ فيدعى أن السلطات الإسرائيلية كانت على علم بهذه العملية ، وأنها كانت تسيطر عليهـا وتـوجههـا بمعـرفتهـا ولصالحها . . .ولهؤلاء عندى الكثير ، أقله وأبسطه ، أن دواعى السرّية والأمن ، اقتضت ـ بالضروة ـ حجب بعض الـوقائع والتفاصيل وإنى اتحداهم أن يذكروا ولو واحدة ـ واحدة فقط ـ من هذه الوقائع ! » .

ثم . . .

ثم كانْ لابد أن التقى « بعزيز الجبالى » .

والتقيت به ، وجلست اليه لأكثر من أربعين ساعة على مدى ثلاثة أشهـر ، وسجلت له عشرين ساعـة وثـلاثين دقيقـة . . و . . . وكم ضحكنا معاً ، وفرحنا معا ، ولفنا الحزن والأسى فى أحيان كثيرة . . . كم دمعنا وهو يحكى فى تدفق وحرارة يبعثان على الحيرة والعجب حقا !

وإذا كانت قصص التجسس فى العـالم كله ، إذا ماخـرجت إلى النورَ . . . لاتخرج بنصها وكما حدثت ، لأن هذا يبدو ـ من وجهة النظر الفنية ـ مستحيلا ، وهو أيضا يبدو ـ من وجهة النظر الأمنية ـ من رابع المستحيلات . . . وإذا كان الخلق الفنى نوعا من أستار السرية المفروضة والضرورية ، فهو أيضا نوع من تجميل تلك الجهامة المروعة التى تحيط عادة بالعمل السرى . . .إذا كان الأمر كذلك ، فانه لابد لهذا الخلق الفنى الـوافد والجديد ، أن يمتزج بالواقع « المتاح » للكاتب إمتزاجا

كيميائيا ـ إن صح التعبير ـ يستحيل بعده على القارىء أن يفرق بين الواقع والخيال .. أقول : إذا كان الأمر كذلك فإنى أتساءل قبل أن أخط كلمة واحدة فى هذا العمل :

هل يستطيع الخيال أن يرتفع الى مستوى الحقيقة ؟ !

مجرد سؤال لايمكن أن تكون إجابته عندى . . . غير أنى أقول : هذه قصة رجلين من جيل صنع لمصر ، وللأمة العربية كلها ، معجزات .. تحاول بعض قوى الشر أن تطمسها ! !●●

« ص . م . »



## الفصل الأول

## رسالة غامضة

كان الزائر قادما من ألمانيا الغربية ، وكان موعد عاجل قد حُدد له مع الفريق محمد سعيد الماحى ، مدير المخابرات العامة المصرية فى ذلك الوقت . . . لذلك فما ان وصلت سيارته الى بوابة مبنى الجهاز ، حتى أفسح لها الرجال الطريق الى الداخل ، بعد أن تحقق الحراس من شخصية الضيف .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة صباحا ، وكان اليوم هو أحد أيام يناير عام ١٩٧٩ ، وما ان هبط الشاب الوسيم من سيارته ، يحمل فى يمناه حقيبة أوراقه الحديثة والمزودة بأقفال مركبة تنبىء عن حرصه الشديد على ما تحويه من أوراق ، حتى وجد من يقوده فوراً إلى مكتب المدير !

بدا الشاب من هذا النوع الفارع الطول ، الشديد الأناقة ، الأشقر ، الملون العينين ، والذى ـ مع كل هذا ـ يبدو مصريا

مغتربا ولقد كان يرتدى فوق بذلته معطفا أوربيا كان يحميه من تيار الهواء البارد الذى راح يجتاح تلك المساحة الخالية ، التى تفصل بين بوابة الجهاز ، وباب المبنى الرئيسى .

ولابد أن ذلك اللقاء بين مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ، وضيفه ، قد اتسم بكثير من الود ، فلقد ترك المدير مقعده وجلس إلى جوار الضيف فى الصالون الأنيق الملحق بمكتبه . . . وفى الحقيقة ، فإن الفريق الماحى لم يكن يعرف ، حتى لحظة لقائه بهذا الشاب الوسيم ، والذى كان معروفا للمصريين منذ سنوات ، خاصة بعد أن اتسمت أعماله فى الخارج بغير قليل من النجاح ، لم يكن يعرف شيئا عن سبب الزيارة . . . كل ماكان يعرفه ، أن رجل الأعمال المصرى الشاب « نهاد كامل » يحمل رسالة على درجة عالية من السرية من شخصية لايستطيع أن يبوح باسمها فى التليفون ، وأنه يريد أن يسلم الرسالة ، يدا بيد ، إلى مدير المخابرات العامة المصرية ، ولاأحد غيره !

ولقد مضت الدقائق الأولى بين المدير وضيفه فى تبادل كلمات المجاملة التى تسبق عادة تلك الأحاديث التى تتناول أمورا ذات أهمية خاصة . . بعد دقيقتين ، وضع بين المدير وضيفه ، كأسان من عصير الليمون الذى تفوقت بوفيهات الجهاز فى صنعه . . . ورشف كل منهما رشفة من كأسه ، وانتهت كلمات المجاملة ، ثم ساد الصمت !

توقفت عينا المدير عند وجه الشاب لبرهة . . . بدا له الوجه متناسق التقاطيع ، توحى ملامحه بطيبة صادقة ، كما أوحت نظرات العينين الملونتين بذكاء خفى . . . إذن ، فهذا هو « نهاد كامل » . . . ولقد كان نهاد الآن يبتسم ابتسامة بدت للمدير حائرة ، فاعتدل فى جلسته



قائلا :

« إيه حكاية الرسالة دى ياسيد نهاد ؟ ! »

قال الشاب وهو يتناول حقيبة أوراقه ويتلاعب فى أقفالها المركبة :

« الرسالة معايا يافندم ! »

ران الصمت مرة أخرى حتى مزقه صوت الأقفال وهى تفتح ، رفع نهاد غطاء الحقيبة وأخرج منها مظروفا أنيقا من ذلك النوع الذى يستعمله الموسرون والارستقراطيون فى أوربا الغربية . . . والتقطت عينا المدير على الفور حرفين بارزين فى ركن المظروف ، كان الحرفان هما : « D.S » - د . س . - تناول المدير المظروف ، وبدا عليه التردد للحظة ، فقال الشاب :

« تقدر سيادتك تفتحه قدامى ! »

رماه المدير بنظرة تساؤل فاستطرد :

« علشان لو فيه أى استفسار ، أنا مستعد أجاوب عليه ! »

امتدت أصابع المدير إلى فتحة المظروف فاستجابت له ، أخرج الرسالة المكتوبة على الآلة الكاتبة ، وباللغة الانجليزية ، ثم فردها أمام عينيه . . . وكانت مكونة من سطر واحد !

« سيدى . .

فى اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، توفى الهر ديفيد شارل سمحون »

وكان التوقيع بالآلة الكاتبة أيضا : « فراو سمحون » .

قبل أن يهم المدير بالحديث ، بادره رجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » وهو يومىء نحو الرسالة محاولاً تفسير ماقد يكون قد جال بخاطر المدير :

« أنا طلبت منها تكتب الرسالة بالانجليزى لانه معروف فى مصر أكتر من

الألمانى ! »

هز المدير رأسه علامة الفهم ، وكان الشاب قد أغلق حقيبته ، فرفع كوب الليمـون الى شفتيه ورشف منـه رشفة بدت وكأنها تحية أخيرة ، ثم نهض ، فنهض معـه المـدير ، وسار الى جواره حتى باب الغرفة وهو يردد كلمات شكر مقتضبة ، دلت على عنف الأفكار التى كانت تضطرب فى رأسه .

والذى لاشك فيه ، أن المدير كان ـ فى تلك اللحظات ـ يفكر فى عقد اجتماع عاجـل مع واحد من معاونيه.. . ولذلك ، فلقد صافح ضيفه عند البـاب وهـو يطلب إلى سكـرتـيره ـ الذى أحس بالحركة فنهض لاستقبال الضيف ـ أن يوصل السيد « نهاد كامل » حتى باب الجهار الخارجى !

عندما انصرف الضيف ، كانت سبع دقائق ونصف قد انقضت ، منذ دخل الغرفة !

●●●

فى الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ ، دخل إلى مطار القاهرة الدولى شابان فى مقتبل العمر . .. وكانا يبدوان من رجال الأعمـال الـذين اعتـادوا ـ فى السنـوات الأخـيرة ـ على السفـر فى فترات متقاربة . . . ذلك أن جوازى سفرهما كانا يحملان تأشيرات عديدة لأختام عدد كبير من دول العالم شرقا وغربا . . . من اليابان ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية !

أما الأول فكان أسمر الوجه ، ذا ملامح خشنة وملابس شديدة الأناقة تشى بقدر هائل من الثراء المفاجىء . . . وكانت المهنة المدونة فى جواز سفره هى : صاحب محلات كبرى ـ تحمل اسمه المدون فى جواز السفر ـ فى حى من أكبر أحياء القاهرة التجارية . . . وكان الثانى وسيما ، ذا ملامح رقيقة وملابس



أنيقة فى اعتدال من يعرف معنى الأناقة ، وكانت المهنة المدونة فى جواز سفره هى : « مهندس تبريد » ، بنفس المحلات التى تحمل اسم الأول .

كان واضحا أنهما فى طريقهما لعقد صفقة هامة للثلاجات وأجهزة التبريد فى ألمانيا الغربية ، كما كان واضحا أيضا أنهما قررا السفر فجأة فى عصر ذلـك اليوم ، حتى يلحقـا بمـوعـد هام فى الصباح بمدينة « هامبـورج » . . . ذلـك أن تذكرتيهما كانتا على طائرة الخطوط الجوية الباكستانية التى تغادر القاهرة فى المساء إلى باريس ، وذلك لتعذر وجود طيران مباشر إلى ألمـانيا فى ذلـك الوقت من اليوم وكان عليهما ـ بطبيعة الحال ـ أن يغيرا الطائرة فى باريس ، ليصلا فى فجر اليوم التالى الى « هامبورج » .

ولقد حدث أثناء انتظارهما لموعد إقلاع الطائرة الباكستانية ، أن فتح مهندس التبريد حقيبة أوراقه ، وأخرج منها ورقة ـ كان واضحا تماما أنها ورقة تلكس ـ وراح يقرؤها على زميله فى اهتمام ، ثم أخرج تذكرة السفر مؤكدا أنهما سيصلان فى الموعد . . . غير أنهما بعد لحظات من المناقشة ، راحا يقلبان فى بعض الأوراق والكتالوجات التى تحوى رسوما لثلاجات وأجهزة تبريد من ماركة ألمانية شهيرة ، واستغرقا فى المناقشة تماما ، حتى نادت فتاه المطار على طائرتهما !

●●●

فى ذلك الوقت ، كان مكتب رئيس هيئة الخدمة السرية فى جهاز المخابرات العامة المصرية ، يشهد اجتماعا برئاسة صاحب المكتب.. . وكان رجلا ذا شعر رمادى ، عريض الكتفين كبير الرأس ، أظهر مافى ملامحه هاتـان العينان اللتان تبدوان وكأنهما فى حوار دائم مع أشياء مجهـولة . . . فوق المقعدين الوثيرين المواجهين لمكتبه والملاصقين له ،

جلس رجلان يعبران الخطوات الأخيرة من ربيع العمر . . . على يمين المكتب ، جلس شخص رابع فوق مقعد يسمح له بأن يلقى بظهره الى الوراء ، وأن يعقد ذراعيه أمام صدره ، ويطبق شفتيه بعنف من يعانى فى داخله أزمة حادة !

كان الجالس خلف المكتب يمسك بيده تلك الرسالة الغامضة التى وصلت فى صباح نفس اليوم إلى مدير جهاز المخابرات من « فراو سمحون » !

كانت الرسالة ـ رغم قصرها البالغ ـ تحمل للرجال معانى كثيرة فى حاجة إلى تحليل ، وفى حاجة أكثر إلى تقدير موقف . كان معنى الرسالة ـ أولا وقبل كل شىء ـ أن « فراو سمحون » قد عرفت الحقيقة . . . وهى لاتستطيع أن تعرف الحقيقة إلا من « ديڤيد » نفسه . . وعلى هذا ، فلابد أنها قد عرفتها منه قبل وفاته . فلماذا لزمت الصمت طوال هذه المدة ؟ !

لماذا لزمت الصمت طوال مايقرب من شهرين ؟ !

كان السؤال فى حاجة الى إجابة حاسمة ودقيقة فى نفس الوقت. . . إجابة قد نعثر عليها لو أننا لاحظنا أن اسلوب الرسالة ، وطريقة إرسالها فى نفس الوقت ، ينبئان عن خوف حقيقى وقاطع . . .فالمظروف الذى يحمل « البادج » الخاص باسم « ديڤيد سمحون » ـ د . س . ـ هو الدليل الوحيد على أن الرسالة قادمة من السيدة سمحون ، ذلك أنه ـ أى المظروف ـ لايحمل اسما ولاعنوانا . . . فهو مظروف من الممكن لأى أحد أن يحصل عليه من البيت أو المكتب أو حتى من المطبعة . . . ثم إن الرسالة نفسها مكتوبة على ورقة بيضاء ، وليست ورقة من نفس نوع



ورق المظروف ولاتحمل نفس «البادج » الذى يدل على صاحب الخطاب وحتى التوقيع الذى وضعته « فراو سمحون » كان مكتوبا بالآلة الكاتبة !

إن المعنى الوحيد لكل هذا ، أنها خائفة الى حد التنصل من الأمر كله إذا اقتضى الأمر !

ألا يكون هذا الخوف ، وهذا الاحساس بالخطر ، هما التفسير المنطقى للسؤال الأول ؟ ! وهو أنها انتظرت طوال تلك الأسابيع ، حتى وجدت من تثق به ، لتحمله هذه الرسالة وماتحويه من أسرار ؟ !

هذا ـ على كل الأحوال ـ ما كان الرجال قد توصلوا إليه فى الصباح ولذلك ، كان لابد وأن توضع كل هذه المحاذير نصب الأعين فى محاولة الاتصال بها التى رأى الرجال ـ فور علمهم بوصول الرسالة ـ أنها لابد أن تتم بأسرع مايمكن وبالفعل ، أوكلوا أمر الاتصال الى شابين من شباب الجهاز المشهود لهما بالكفاءة ، وسرعان ماجهزت الأوراق وجوازا السفر ولقد قال أحد الرجلين الجالسين على المقعدين المواجهين للمكتب ، إنهما ـ أى الشابين ـ الآن فى المطار ، وانهما لم يجدا وسيلة يصلان بها الى هامبورج فى الصباح ، سوى السفر على شركة الخطوط الجوية الباكستانية إلى باريس ، ومن باريس ـ فى فجر الغد ـ إلى هامبورج . . . وأن هذا سيكلفهما السهر والسفر طوال الليل بلا راحة . . . لكنهما بالتأكيد ، لن يلتقيا بالسيدة سمحون إلا بعد ظهر الغد ، وسيكونان قد حصلا على قدر مناسب من الراحة يجعل ذهنيهما صافيين وقادرين على استيعاب الموقف وماقد يترتب عليه من مضاعفات محتملة ! !

وعلى كل - هكذا استطرد الرجل - فلقد زوّدا بكل مايحتاجان اليه من معلومات ، وكل ماهو ضرورى من تعليمات ، وان « عزيز » - هذا اسم الجالس على يمين المكتب - قد لقنهما بكل الاحتمالات القائمة ، والتى قد تحدث اثناء عملية الاتصال التى كان المفروض أن تتم فى صباح اليوم التالى !

كان واضحا من الجدل الدائر ، أن الخبر - خبر وفاة ديڤيد شارل سمحون - لم يكن مفاجأة بالنسبة للرجال ، وأنهم عرفوا بخبر الوفاة فى نفس اليوم الذى حدثت فيه ... ومن بعض الكلمات التى تناثرث أثناء الحديث ، كان يمكن للمستمع أن يستنتج أن ثمة أزمة قد حدثت فى ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وأن جدلا على أعلى مستوى فى الجهاز قد ثار حول سفر « عزيز الجبالى » - هذا الجالس إلى يمين المكتب معقود الذراعين مزموم الشفتين محتقن الوجه - فلقد أصر على الاشتراك فى تشييع الجنازة فى اليوم التالى ، بحجة أنه : « لازم واحد فينا يكون جنبه قبل مايغيب جوه الأرض للأبد ! » . . . كانت الجملة تبدو حاسمة فى منطقها ، لكن البعض - ممن اشتركوا فى الجدل يومها - كان يرى أن الشىء الذى حسم الأمر حسما نهائيا ، هو قول عزيز الجبالى :

« وعلشان يلاقى اللى يصلى عليه صلاة الجنازة قبل مايندفن ! »

كان ماطلبه - فى واقع الأمر - ضد كل قوانين الأمن وكل الأعراف السارية بصرامة فى أجهزة المخابرات فى العالم كله . . . ولقد كان موضوعا فى الاعتبار ، أن بعض الشخصيات الاسرائيلية ذات المكانة ، قد تطير الى ألمانيا كى تشترك فى تشييع الجنازة ، فلم يكن « ديڤيد شارل



سمحون » شخصية اسرائيلية عادية ، بل كان رجل أعمال بارزا ، توسعت أعماله فى السنوات الأخيرة فشملت مجالات حيوية شديدة الأهمية ، كما كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية بل وسياسية على درجة رفيعة داخل اسرائيل . . . ثم ، لقد كان من الممكن أن يسافر أى انسان آخر غير عزيز الجبالى كى يشيع الصديق الذى ذهب . . وكى يصلى عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية ، لكن المدهش فى الأمر ، أن عزيز الجبالى - ولم تكن مكانته ولاخبرته ولامركزه تسمح له بأن يرتكب حماقة - أصر على الذهاب بنفسه . . ولم يكن أمام جهاز المخابرات المصرى - كمنظمة -!! - إلا أن يضع فى اعتباره تلك العوامل الانسانية تحت شرط واحد وصارم ، وهو أن تتوافر كل عناصر الأمن ، وفى اقصى درجاتها ، لعزيز الجبالى .

. . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

كان عزيز بطبيعة الحال قادرا على أن يوفر هذه العناصر على أعلى درجة من الكفاءة . . . ولذلك ، فقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وقبل أن يصعد عزيز الى الطائرة فى طريقه الى ألمانيا الغربية عبر مسارات مركبة ومدروسة بعناية فائقة . . . كانت برقية شفرية قد خرجت من القاهرة لتصل إلى مدينة « دوسلدورف » - حيث محطة الوصول بالنسبة لعزيز - حاملة نبأ وصوله .

وهو ، عندما هبطت به الطائرة فى مطار « دوسلدورف » كى يركب خطا داخليا إلى مدينة هامبورج القريبة من « بريمن » حيث كان يعيش « ديڤيد شارل سمحون » ، لم يكن شىء قد زاد على هيئته سوى نظارة

طبية ذات تكوين خاص يوحى بأن صاحبها طبيب ظل ينحنى على مرضاه طوال سنوات تزيد على ربع القرن . . .فى المطار التقى بصديق كان فى انتظاره ، حتى إذا ماجاء صباح اليوم التالى كانا معاً فى « بريمن » ، وكانت ـ قبل وصولهما ـ « زيارة » قد رتبت للسيد عزيز كى يلقى نظرة أخيرة على الفقيد ، وأن يعطى الفرصة كاملة ، وفى أمان تام ، كى يصلى عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية !

رغم الحزن البالغ الذى كان يعتصر قلب عزيز على صديقه الراحل ، لم يستطع إلا أن يبدى اعجابه الشديد بأصدقائه وزملائه ورجاله فى ألمانيا الغربية ، الذين استطاعوا ـ فى زمن فوق القياسى ـ أن يرتبوا كل شىء بدقة تبعث على الدهشة . . .ففى الصباح المبكر لليوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، كانت هناك سيارة سوداء فاخرة ، تابعة لمحل « الحانوتى » الذى كان مكلفا باعداد جثمان المرحوم « ديفيد شارل سمحون »، وكان عزيز يدلف إليها وقد ارتدى بذلة سوداء أنيقة وغالية الثمن ، من هذا النوع الذى يرتديه الكبار فى مثل هذه المهنة . . . وكان يضم الى صدره كتابا مقدسا ـ هو القرآن بالتأكيد ـ وكان ـ قبل أن يغادر مكمنه ـ قد توضأ وصلى ركعتين على روح الفقيد داعيا له بالرحمة . . .وعندما انطلقت السيارة فى شوارع « بريمن » ، كان « السيد » الجالس فى الخلف يتمتم بآيات من القرآن الكريم ، حتى اذا وصلت السيارة الى بيت المرحوم ديفيد شارل سمحون ، وعند الباب الخلفى ، لا الأمامى ، توقفت السيارة ، وهبط منها عزيز يصاحبه المساعد ـ مساعد الحانوتى ـ الذى كان معروفا لأهل البيت والبلدة ، وكان يركب الى جوار السائق ! !

كان المساعد ـ الذى اشترك فى هذه الزيارة ـ مرتاح الضمير تماما ،





لا لأن عدد الماركات الألمانية الذى حصل عليه سراً كان مجزيا بحق ، ولكن لأنه كان يؤدى خدمة انسانية ودينية ! . فلقد قيل له ـ فى مساء اليوم السابق ، وبعد وصول رسالة شفرية كان مصدرها القاهرة ـ إن المرحوم « ديفيد شارل سمحون » كان يتبع مذهبا خاصا فى الديانة اليهودية ، يحتاج إلى طقوس معينة ، وإن هذا السيد البادى الحزن الصامت القابض على الكتاب المقدس ، هو واحد من أصدقاء المرحوم ، فوق أنه رجل من رجال الدين . . . وعلى هذا، فما ان توقفت السيارة السوداء أمام الباب الخلفى حتى فتح هذا الباب وظهر فيه رجل مسن ، أنيق المظهر ، بادره المساعد بالتحية فور رؤيته :

« صباح الخير فرانز ! »

« صباح الخير يوهان ! »

« كيف حال فراو سمحون هذا الصباح ؟ ! »

« لاتزال فى غرفتها ، وان كان الحزن سيقضى عليها ! »

« ماذا عن الصغيرين ؟ ! »

« سوف يحضران من المدرسة بعد قليل ! »

« هل كل شىء جاهز ؟ ! »

أفسح فرانز لهما الطريق :

« تفضلا من هنا ! »

« أرجو الا تقلق فراو سمحون كما اتفقنا ! »

« لاتخش شيئا ياصديقى . تفضلا ! »

قادهما فرانز العجوز ـ كبير الخدم فى البيت ـ إلى حيث الغرفة التى يرقد فيها جثمان الفقيد . . وعند الباب ، همس المساعد فى أذن كبير



الخدم :

« لم لاتقدم لى فنجانا من القهوة ؟ ! »

ولقد فهم فرانز ، على الفور ، ففتح بـاب الغـرفة موسعا الطريق لـ « السيد » ، ثم أغلق الباب وراءه !

وكـانت هذه ـ ربـما ـ أصعب لحظات مرت بضـابط المخـابـرات المصرى « عزيز الجبالى » فى عمره كله !

ذلك أن « عزيز الجبالى » لم يكن رجلا عاديا ، فلقد قضى من عمره خمسة وعشرين عاما فى مهنته تلك ، وهو ، عندما يُتذكر مامر به من أحداث وتجارب ، لايملك نفسه من الدهشة والتساؤل : كيف يحتمل عمر إنسان واحد كلّ هذه الاحداث ؟ . . . ولقد عود نفسه وربّاها ـ مثله مثل كل ضباط المخابرات فى العالم ـ على مواجهة كل الاحتمالات مهما كانت ، لكنه ـ فى ذلك الوقت المبكر من الصباح ، وعندما دخل إلى الغرفة التى تضم جثمان صديقه فى صندوق أنيق من خشب غالى الثمن ـ كان مستعدا لمواجهة أى موقف يطرأ بين لحظة وأخرى إلا أن يجد نفسه فى مواجهة ، صريحة ، مع « ديڤيد » !!

عشرون عاما قضاها معه ... عشرون عاما لم يكفا عن الحوار يوما حتى أصبح « ديڤيد » جزءا من حياته ، وجزءا هاما وخطيرا من أمن أمته والشعب الذى ينتمى اليه . . . وهو عندما دلف إلى الغرفة ، كان يظن أنه سيقف أمام صندوق مغلق ، لكن المفاجأة كانت أن غطاء الصندوق مرفوع وأن ديڤيد كان يرقد هناك بملابسه كاملة !

عاش كل هذه السنوات مع ديڤيد دون أن يلتقيا مرة ، وكم تمنى لو أن هذا حدث ، ولكم طالب ديڤيد بأن يراه طوال تلك السنين ،

ولكن . . . هاهما يلتقيان ـ لأول مرة ـ وقد رحل أحدهما إلى العالم الآخر . .

وقف عزيز ينظر الى الوجه الساكن أمامه ، نفس الوجه الذى رآه فى صورة صغيرة ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى القاهرة منذ مايقرب من عشرين عاماً ، نفس الابتسامة التى تدعوك الى الثقة بصاحبها والحذر منه فى نفس الوقت ، نفس السماحة والملامح المنبسطة حتى يصبح من الصعب تحديد هوية صاحبها !!

دمعت عيناه !!!

نعم . . . حدث هذا !

لكنه سرعان ماتمالك حزنه ، ووضع نظارته الطبية وفتح المصحف ، وراح يقرأ سورة « يس » !

بعد أن انتهى من القراءة ، وضع المصحف جانبا ، ثم كبر للصلاة . . . ووقف يصلى !

عندما سلم عزيز منهيا صلاته ، أحس براحة شديدة تغمره وكأنه أزاح عبئا كان يثقل كاهله . . . ومالبث أن نظر فى ساعته ، وكان عليه أن ينصرف فهمس :

« مع السلامة يارأفت »

. . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

ظل الحوار دائرا فى مكتب رئيس شعبة الخدمة السرية بعض الوقت . . . وفى الحقيقة ، فلقد كانت هناك نقطتان دار حولهما الحوار . . . أما النقطة الأولى فهى : ما الذى يمكن أن يقال للسيدة سمحون أذا ماسألت عن حقيقة زوجها ؟ ، ولأن الرجال لم يكونوا يعرفون مدى معرفتها بالأمر كله ، فلقد كان القرار الذى اتخذ فى ذلك



الاجتماع هو أنه من الأفضل أن توضع الحقيقة بين يديها كاملة ، إن من حق ولديها أن يعرفا أى رجل كان « ديفيد شارل سمحون » .

أما النقطة الثانية فكانت : ماالذى يمكن أن تقدمه مصر للسيدة سمحون وولديها منه ؟ ! . . . إنها بالطبع لن تكون فى حاجة الى المال ، فلقد ترك لها ديفيد عددا لابأس به من ملايين الماركات الألمانية والدولارات الأمريكية ، كما أنها ـ وهى سيدة أعمال ـ تملك عددا من الملايين لايقل عما كان يملكه زوجها . . . ولذلك ، فلقد استقر الرأى على أن تعامل السيدة سمحون هى وولداها كما لو كان ديفيد نفسه هو الذى يطلب !

وهكذا استقر الأمر ، وانتهى الاجتماع !

●●●

فى التاسعة من صباح اليوم التالى لوصول هذه الرسالة الغريبة الى القاهرة . . . دق جرس التليفون فى بيت المرحوم « ديفيد شارل سمحون » الاسرائيلى الجنسية ، والذى كان يعيش فى مدينة « بريمن » الألمانية ، التى لاتبعد كثيرا عن مدينة هامبورج ، منذ أكثر من خمس سنوات مع زوجته سيدة الأعمال الألمانية التى كانت تحمل اسم « هيلين ريشتر » قبل أن تقترن به ، وولديها اللذين كانا يحملان اسمين غريبين على الآذان فى ألمانيا . . . غير أن بعض من تعرف إلى عائلة سمحون فى بريمن ، أرجعوا الاسمين إلى اللغة العبرية ! !

لم يكن بيت الهر « سمحون » قصرا بالمعنى المعروف لهذا الكلمة ، كما أنه لم يكن « ڤيللا » صغيرة . . . بل كان بيتا ذا طراز خاص ، يوحى لمن يراه ، بأن صاحبه بالقطع من أصحاب الملايين ... وكان أكثر مايميز حديقته ، تلك النباتات التى تنمو عادة فى الشرق الأوسط ،

والتى كان الهر سمحون يعشقها عشقا بالغا ، ويصر ـ خاصة فى أيامه الأخيرـ على رعايتها بنفسه .

فى الـداخـل . . . كان بهو البيت واسعا ، ومكونا من ثلاثة أقسام ينساب كل قسم منها الى الآخر من خلال تنويعات الأثاث والديكور ، انسيابا ينبىء عن ذوق رفيع . . . كان الأثاث فاخرا ، والستائر البيضاء مسدلة على النوافذ الزجاجية فيما عدا الباب المؤدى الى الحديقة ، حيث كانت « فراو سمحون » تجلس الآن . فلم تكن هناك ستائر تحجب عنها المنظر الجميل لحديقة بيتها ... على الحيطان ، علق عدد بسيط ومتناثر ومتباعد فى نفس الوقت ، من اللوحات الثمينة ، بحيث تبدو كل لوحـة وكـأنها فى معـرض قائم بذاته ، لاتشغل العين عنها لوحة أخرى ، أو حتى تحفة غالية الثمن ! ! . . . فى الصدر تماما كان البيانو الأبيض هو أكثر مايجذب نظر الزائر ، فلقد كانت المساحة المحيطة به ، تكاد تكون خالية الا من مقعدين يرجع طرازهما الى القرن الخامس عشر !

عندما دق جرس التليفون ، كانت فراو سمحون قد انتهت لتوها من قراءة مقال فى إحدى المجلات الاقتصادية الشهيرة . . . وكان المقال الـذى استغـرقت فى قراءته باهتمام أثناء تناولها لقهوة الصباح ، مليئا بالأرقام والرسوم البيانية غير أن هذه الرسوم ، مع بعض الصور المنشورة لبعض رجال الأعمال العرب ، كانت توحى بوضوح بأن المقال يدور حول البترول .

ومنذ قرابة شهرين ، عندما توفى الهر « ديڤيد شارل سمحون » بعد مرض عانى منه كثيرا ، كانت السيدة سمحون تعيش فى دوامة عنيفة



من القلق . . . غير أن هذا القلق ازدادت حدته ، يوم ظنت أنها ـ بما أقدمت عليه أخيرا ـ تتخلص منه ! !

كان ماقاله ديڤيد وهويحتضر ،مروعا ومخيفا وهائلا فى نفس الوقت ، بدا لها الأمر كله غير مفهوم ، لكنها ، وقد مرت سحابة الحزن قليلا ، وجدت نفسها أمام طريق واحد لابديل له . . . وازداد خوفها ووقعت فى حيرة طالت لأسابيع كانت تتمزق فيها . . . وهى ـ فى البدية ـ وعندما أفضى ديڤيد بما أفضى به اليها ، ظنته يهذى لفرط ما كان يعانيه من الأم وصلت فى أيامه الأخيرة الى حد أن عجز الطب عن تسكينها لكن نظرات عينيه ، وذلـك الهدوء الغريب الذى سيطر على ملامحه وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئا رهيبا ، ويده التى أمسكت بيدها وكأنه يتوسل توسلا غامضا من أجل هدف غامض كل هذا جعلها تفكر فى الأمر مرة ومرة ومرات ، ثم استبعدت فكرة الهذيان نهائيا !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

رحل ديڤيد منذ ما يقرب من شهرين ، ولم يكن ممكنا بأى حال من الأحوال ، أن تبوح لأحد بما باح لها به فهى تعرف جيدا ما الذى يمكن أن يفعله الاسرائيليون بها وبـالـولـدين جميعا وهى عندما تعـرفت إلى ديڤيد أول مرة منـذ مايقـرب من سبع سنوات ، وعندما أحست أنها تنزلق الى حب غامض ، ومنذ اللحظة الأولى التى أحست فيهـا بتلك العـاطفـة كانت الأزمـة التى عانت منها ، ليس أنها تجاوزت سن الحب والـزواج وبناء أسرة جديدة ، ولكنها أزمة كانت تتلخص فى سؤال ألح عليها طويلا : كيف تقع فى حب اسرائيلى ؟ !

لم تكن « فراو ريشتر » ـ كان هذا اسمها فى ذلك الوقت ـ عجوزا

تحمل ذكريات ما كان بين شعبها وبين اليهود من عداء ، لكنه ذلك الإحساس الغامض والغريب والمترسب فى أعماق نفسها ، ذلك الاحساس الذى بدا واضحا أشد مايكون الوضوح عندما أفضت الى « ليندا » ـ مديرة مكتبها وصديقتها الحميمة ـ بما يعتمل فى نفسها ، فهتفت ليندا :

« هيلين هل تستطيعين ؟ ! »

« ولكنى أظن أنى أحبه ! »

حذرتها ليندا فى وضوح :

« لاتنسى أنه يهودى ؟ ! »

لوحت بذراعها فى ضيق :

« اللعنة ! »

« واسرائيلى ! »

صاحت فى وجه ليندا :

« هل أنت عنصرية ؟ ! »

هزت ليندا رأسها ضاحكة وقد أدركت انه لاجدوى من المناقشة وهى تقول ساخرة :

« ليس بالضرورة ياعزيزتى ليس بالضرورة ! »

وتزوجته ! !

وأصبح اسمها « فراو سمحون » وكانت سعيدة بهذا الزواج الذى أثمر ـ رغم سنها ـ ولدين لقد وقعت هيلين فى حب ديڤيد حقا ، غير أنها غاصت فى هذا الحب حتى أذنيها بعد الزواج كان ديڤيد رجلاً يعرف كيف يتعامل مع المرأة ، كيف يدللها ومتى ؟



وكيف ينهرها فى الوقت المناسب . . . ومتى يبثها حبه وكيف يجعلها تشتاق إلى كلمة منه . . . هكذا كان ديڤيد ، لكن شيئا ما ، غامضا وغريبا ، ظل معلقا فوق رأسها طوال حياتها معه . . . شيئا لاتدريه ولاتعرفه . . . كانت ـ على سبيل المثال ـ تداعبه فى أحيان كثيرة قائلة : انه لايمكن أن يكون يهوديا أو اسرائيليا . . . وكان المدهش فى الأمر ، أن هذا لم يكن يغضبه ، بل كانت تبدو على وجهه علامات سعادة لاتخطئها العين !

لكنه ذهب ! !

ذهب بغموضه وحنانه ورقته ورجولته التى كانت تبدو فى بعض الأحيان وكأنها تاج يتحلى به !

ولقد قاوم ديڤيد طويلا قبل أن يذهب ، عانى الأما مبرحة !

وليته ذهب حاملا سره معه !

وليتها ظلت كاتمه لهذا السر وكأنها لم تسمعه . . . ولكن كيف ؟ !

كيف وهى ـ منذ أن رحل ـ لم تعرف للراحة طعما . . . كانت تنظر إلى الصغيرين فتشعر بثقل المسئولية . . . ولو لم يكن الأمر يعنى ديڤيد لما باح لها به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وكأنه يحمّلها أمانة كان عليها أن تؤديها . . . غير أن مجرد التفكير ، فيما لو عرف الاسرائيليون ، كان يبعث بالرعب إلى أوصالها ، لاعلى نفسها وحياتها ، بل على حياة ولديها !

قرابة خمسين يوما منذ أن رحل وهى تدور فى دوامة بلا نهاية . . . حتى كانت تلك الليلة التى التقت فيها برجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » ! كان نهاد صديقا قديما تعرفت إليه قبل أن تتعرف إلى ديڤيد

بسنوات ، كان دائما مايظهر ثم يختفى ثم يظهر وكأنه كان دائما هناك ... هو من هذا النوع من الشباب الذى يتميز بالرقة والذكاء معا ، ولقد اختفى سنوات طويلة كانت تسمع فيها عنه ، عرفت مرة أنه يعيش فى استراليا ، وسمعت مرة أنه عاد إلى مصر ، ومرة ثالثة قالوا لها انه استقر فى كندا ... لكنها كانت تدرك سر ابتعاده عنها - كصديق ورجل أعمال معا - منذ أن تزوجت ديفيد ... وهى قد قدرت هذا الابتعاد ، الذى تحتمه على رجال الأعمال العرب ، تلك الظروف السياسية الشديد التعقيد التى تولدت فى الشرق الأوسط منذ أن قامت فيه دولة اسرائيل !

ظهر نهاد هذه المرة وكان يسعى لعقد صفقة طائرات لابأس بها ... جرت المفاوضات بينهما سلسة سهلة ، حتى إذا مابدا أن الاتفاق على وشك أن يتم ، دعاها ذات ليلة الى العشاء !

وهى - فى حقيقة الأمر - كانت تسعى الى هذه الدعوة ، بل ربما هى التى دفعته لأن يدعوها ... كانت تعرف أن « نهاد » ضابط سابق فى الجيش المصرى ، وأن له علاقات طيبة مع بعض المسئولين فى بلاده ... فسألته فى لحظة جمعت فيها كل ماتملك من شجاعة ، إن كان يستطيع أن يحمل عنها رسالة إلى مصر ؟ ! ... قال نهاد :

« سأطير إلى القاهرة فى الأسبوع القادم وأنا فى طريقى إلى المملكة العربية السعودية ! »

« ولكنى أريد منك وعدا بـ . . . . . . »

وصمتت هيلين ، ولابد أن ملامحها عكست ذلك القلق المدمر فى



صدرها ، فلقد سدد اليها نهاد نظرة ثابتة وهو يسأل :

« هيلين ... ماذا بك ؟ ! »

كانا صديقين قديمين ، وكان يستطيع بطبيعة الحال أن يناديها باسمها الأول ، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ، فإن هذا أصبح لايعنيها فى كثير أو قليل !

« هيلين ! »

جاءها صوته دافئا مفعما بالحرارة .

« هيا بنا ! »

قالت هذا ونهضت وكأنها تريد أن تهرب من نفسها ، نهض نهاد ملبيا وقد أدرك أن فى الأمر سرا يقلقها ... وفى السيارة التى كان يقودها الشاب المصرى ، ساد الصمت طويلا ، ولم يحاول هو من ناحيته أن يقطع عليها الصمت ، حتى قالت فجأة :

« سأكتب الرسالة ، وسأطلعك عليها ، لكنى سأطلب إليك طلبا واحدا ! »

« ماهو ؟ ! »

«ألا تسالنى سؤالا واحدا حول الموضوع ، حتى أفاتحك أنا فيه ! »

« لك هذا ! »

« وألا تخبر مخلوقا ، أيا ما كانت ثقتك به ، عن هذا الأمر ! »

« ولك هذا أيضا ! »

« حسن    ترى أيه لغة يفضلها المصريون ؟ ! »

« الانجليزية ، فهى اللغة الأجنبية السائدة هناك ! »

وهكذا ... فى اليوم التالى ، اجتمعت هيلين سمحون مع نهاد كامل على غداء عمل فى مطعم يقع فى نفس المبنى الذى يضم مكاتب

شركتها ... وكانت هيلين تحمل ملفا أنيقا يحوى بعض الأوراق والرسوم المتعلقة بصفقة الطائرات ، قدمت له الملف وهى تقول :

« ستجد الظرف مفتوحا فى هذا الملف ، لك أن تقرأ الرسالة ، ثم تغلق الظرف ! »

« ولمن أسلمها ؟ ! »

صمتت هيلين برهة ، تشاغلت فيها بقطعة السمك الراقدة فى طبقها ، لكنها مالبثت أن قالت :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى ! »

قالت هذا وقد تعلقت عيناها بوجه نهاد فى محاولة لقراءة رد فعل ماقالته ، لكن ملامح الشاب ظلت جامدة ، هادئة تماما ، فعادت تؤكد من جديد :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى وليس لأحد سواه ! »

ظل وجه نهاد جامدا وكأنه لم يسمع شيئا ، رفع اليها عينيه الملونتين وقال فى هدوء وبساطة :

« سأسلمها له يدا بيد فلا تقلقى ! »

ياللرعب المدمر عندما يستحوذ على الانسان ... ما إن انصرف « نهاد كامل » حتى عصفت بها الهواجس ... ماالذى يدريها أن الرسالة لن تقع فى أيدى الاسرائيليين ، حقا لقد انتهت الحرب بينهم وبين المصريين ، ولكن ... إن سرها الدفين هذا لاعلاقة له بحرب أو سلام !

ظلت هيلين مضطربة بالرغم من أنها أخذت للأمر كل حيطة ، كتبت الرسالة على آلة كاتبة بعيدة عن شركتها وعلى ورق عادى ، لم



تضع توقيعها عليها وليس هناك مايدل على أيه علاقة لها بها سوى ذلك المظروف الخالى الذى تستطيع أن تتنصل من معرفة أى شىء عنه . . .

ثم . . . ثم إن نهاد لن يغادر ألمانيا قبل الأسبوع القادم ، فلم لم تسلمه الرسالة قبل سفر بيوم أو فى نفس يوم سفره ؟ !

وحتى عندما تحدث إليها نهاد تليفونيا فى عصر ذلك اليوم الذى تسلم فيه الرسالة قائلا إن برقية عاجلة وصلته من القاهرة فقرر السفر فى نفس الليلة ، حتى عندما فعل هذا أحست بالخوف يعصف بها عصفا !

وهكذا . . . ظلت السيدة هيلين سمحون نهبا لقلق مدمر لأكثر من أربعين ساعة ، حتى دق جرس التليفون فى بيتها ، فى التاسعة من صباح ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ .

●●●

دق جرس التليفون فالتفتت هيلين دون أن تتحرك مس مكانها ، أحست بالاضطراب فعالجته بأن رفعت فنجان القهوة الى شفتيها وهى تلتقط فى نفس الوقت إحدى المجلات الفرنسية ... على الفور ظهرت « أولجا » ـ سكرتيرتها ـ من الداخل وهى تسير بتلك الخطى السابحة فى الهواء بلا صوت . . . من طرف خفى راحت ترقبها وهى ترفع سماعة التليفون الى أذنها سرت فى جسدها قشعريرة حاولت السيطرة عليها بكل ماتملك من قوة ، تظاهرت بتقليب صفحات المجلة الفرنسية لكن عينيها كانتا تتلصصان نحو « أولجا » التى كانت تتحدث بصوتها الهامس وقد بدت عليها الحيرة ... ولقد كانت تتساءل قبل أن يدق جرس التليفون بثوان عما اذا كان « نهاد كامل » قد سلم الرسالة ، وعما

إذا كان « جواب ما » سوف يأتيها من القاهرة ، لكنها سرعان ما سخرت من نفسها فنهاد لم يغادر ألمانيا إلا منذ ست وثلاثين ساعة ولا يمكن أن يكون الأمر قد تم بهذه السرعة في بلد كمصر !

وضعت « أوجا » السماعة فوق الحامل الأنيق المجاور للتليفون . . . اضطربت هيلين وهي تتساءل : هل من الممكن أن يكون لهذه المكالمة علاقة برسالتها ؟ . . . ليست السرعة والاهتمام بقيمة الوقت من صفات العرب ، لكنها قد تكون من صفات الاسرائيليين . . . ها هوذا الرعب يأتيها أثر خطأ وقعت فيه فأين المفر ؟ !

« سيدتي . . هناك شخص يقول إنه صديق قديم للهر سمحون ! »

في هدوء أعادت هيلين فنجان القهوة الى المائدة ، رفعت الى السكرتيرة عينين متسائلتين ، فقالت هذه :

« إن في صوته لكنة شرقية ! »

ازداد البريق المتسائل في عينيها فعادت السكرتيرة تقول وكأنها تعتذر :

« ربما كان آتيا من إسرائيل ! »

اندبت الكلمة في صدرها فأحست بالألم ، أرادت أن تخفي اضطرابها فنهضت مشيحة عن السكرتيرة ، وكان هذا إيذانا للفتاة بالانصراف فانصرفت خطت هيلين نحو التليفون فخيل اليها أنها تترنح ، جاءها الصوت من الطرف الآخر متسائلا :

« فراو سمحون ؟ ! »

« نعم ! »



« أنا صديق قديم للهر سمحون ، ولقد وصلتني رسالتك بالأمس ! »

على الفور هتفت مستنكرة :

« أية رسالة ؟ ! »

جاء سؤالها سريعا كطلقة مباغتة ، ران الصمت لثوان خاطفة سرى بعدها الصوت الى أذنها واثقا ثابت النبرات :

« لقد جئت كي أقدم لك خالص عزائي ياسيدتي ! »

غلبها الخوف والحذر فعادت تلح :

« ولكنك تتحدث عن رسالة ، أية رسالة هذه ! »

في بساطة من يسيطر على الأمر تماما ، عاد الصوت يقول :

« ربما كان في الأمر خطأ ما . . . ولكني اعتقد أنه يهمك ـ كما يهمني بالطبع ـ أن نصفي ذلك الموقف بين شركتينا ! »

في إصرار عادت تستنكر :

« شركتينا ؟ ! »

« كنت أظن أنك تحدثت في الأمر مع الهر نهاد كامل ! »

أحست وكأنها محاصرة ، فغمغمت :

« لكني لن أذهب الى مكتبي في هامبورج حتى نهاية الأسبوع ! »

« إن لم يضايقك هذا ياسيدتي ، فنحن على استعداد لزيارتك في بريمن ! »

« أنتم ؟ ! »

« نعم أنا وشريكي الذي يعنيه أن يلتقي بالصغيرين العزيزين ! »

« الصغيرين ؟ ! »

« كان شريكي صديقا حميما للهر سمحون ! »

« لكن الطفلين لايعودان من المدرسة إلا فى عطلة نهاية الأسبوع ! »
غمغم صاحب الصوت الآتى عبر السماعة :
«هذا من سوء حظنا حقا ! »

قال هذا ، فساد الصمت . كانت جملته الأخيرة تعنى أنه ـ الآن ـ يترك لها حرية الاختيار . . . ترددت فترة طالت بعض الشىء ، كانت ممزقة ، حائرة ، وكانت خائفة . . . ولقد ظل الصمت آتيا من الطرف الآخر ، حتى إذا كانت لحظة ، أدركت أنه لاسبيل إلى التراجع ، وأن حسن التصرف يستلزم منها أن تسير فى الشوط حتى نهايته :

« حسن أيها السيد . . . يمكننى استقبالكما فى الخامسة من بعد ظهر اليوم ! »

« شكرا ياسيدتى ! »

« هل أعطيك العنوان ؟ ! »

« لست أعتقد أننا فى حاجة اليه ! »

« إلى اللقاء إذن ! »

قالت هذا وهى تعيد السماعة إلى مكانها ، دون أن تنتظر من الرجل ردا ! !



## الفصل الثانى

# البحث عن الحقيقة

لم تكن السيدة « هيلين سمحون » من ذلك النوع من النساء اللاتى يستعذبن الضعف أو يستسلمن للخوف . . . ففوق تربيتها الألمانية الصارمة ، واعتزازها بالانتماء الى شعب كانت ـ ولاتزال ـ مؤمنة أشد مايكون الايمان أنه يستطيع تحقيق المعجزات . . . فقد ولدت فى حجر الآلام والهزيمة والدمار وأحذية الجنود الغليظة تطأ أرض بلدتها الصغيرة فى عجرفة واستعلاء . . . ولولا تلك القصص التى عاشتها وعاصرتها وسمعت عنها منذ أن وعت عيناها حقائق الحياة ، لولا معرفتها اليقينية بما يمكن أن يفعله الاسرائيليون خاصة مع بنى جنسها ، بالحق وبالباطل ، لعالجت الأمر بأسلوب مختلف . . . لقد عاشت المأساة طفلة ، فرض عليها قدرها أن تأتى الى هذه الدنيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، فنمت فى احضان الكارثة ، وكان عليها أن ترى بعينى طفلة كيف انهار كل شىء ، وكيف كان على بنى جنسها أن ينهضوا من جديد .



كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما خلا البيت إلا منها ومن فرانز العجوز ، وهى منذ ان تلقت تلك المكالمة التليفونية فى الصباح ، راحت تستعد لهذا اللقاء الذى كان مقدرا له أن يتم بعد دقائق ... : صرفت الخدم والسكرتيرة ولم تستبق معها سوى وصيفها ومدير بينها ومخزن أسرارها وصديقها الوفى لخمسة وعشرين عاما طلبت إلى فرانز أن يبقى الى جوارها فرحّب العجوز بعد أن لاحظ توترها ، لكنه لم يسأل عن الأسباب تأدبا ، ومنذ أن خلا البيت الا منها ومنه ، وهو دائما هناك ، ما إن تحتاج الى شىء ، أو تطلب شيئا ، حتى تجده ملبيا بأسرع مما أعتاد ، بل ربما أسرع مما يجب !!

كلما اقتربت الساعة من الخامسة ازداد توترها ، راحت تذرع البهو الفسيح جيئة وذهابا ، من خلف زجاج النوافذ كانت ترقب الثلج المندوف وهو يتهادى صابغا الدنيا بلونه الأبيض ، كم كان ديفيد يحب منظر الثلج هذا ، كم كان يطرب كطفل وهو يصيح فيها طالبا اليها أن تأتى لتشاهد سقوطه معه ، شرقيا كان ديڤيد ، شرقيا حتى النخاع ! ... هذا الثعلب الذى ، منذ أن التقت به ، وهو يهديها المفاجأة تلو المفاجأة ... لكن مفاجأته الأخيرة ، فاقت كل خيال !

كم كان العمر شاقا وكم كان المشوار طويلا من هناك ، من أقصى الجنوب الألمانى ، كانت البداية !!

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

فى أقصى الجنوب الشرقى لألمانيا ، ولدت « هيلين شيبربور » - هذا هو اسم عائلتها - فى بلدة صغيرة اسمها « خام » -Cham-

ـ لأب كان يعمل جواهرجيا . . .كانت البلدة جدُّ صغيرة ، وكل الناس فيها يعرفون كل الناس ، ولكن الهر « كارل شيبربور » ـ والد هيلين ـ كان يتمتع باحترام خاص بين سكان البلدة والقرى المجاورة ، لا لأنه كان على قدر من اليسار ميّزه عن بقية السكان ، ولكن لأنه كان رجلا من هذا النـوع الصلب الـذى لاتؤثـر فيه الأزمـات ، ولا ينحنى للعواصف وكم من مآزق وقعت فيها البلدة أثناء الحرب فتخطاها الهر كارل بمهارة وحنكة ، وكم من أياد مدها لأهل بلدته فى صبر وكرم جعلا للعائلة كلها مكانة خاصة فى قلوب الناس ولكنه لم يستطع أن يتخطى أزمة الهزيمة والاستسلام ورؤيته لأحذية جنود الاحتلال الغليظة وهى تطأ أرض البلدة التى أحبها ... فمات ، وكانت هى فى السابعة من عمرها .

. . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . .

الصمت والخوف والهلع والتوتر ولاشىء سوى نظرات الأب والأم عبر زجاج النافذة الى الطرقات الخالية فى « خام » . . . كان هذا منذ ست وثلاثين سنة كاملة . . . تذكر هى ذلك اليوم وكأنها تراه ماثلا دون أن تغفل منه شيئا كانت تقبع مع شقيقتيها فى ركن من البيت وكان محظورا عليهن أن يتحـركن من مكـانهن أو يقـتربن من النـوافـذ أو البـاب . . . بالأمس غادر البلدة آخـر جندى المانى مشيعا بالدموع والحزن والانتظار القلق والمخيف للغزاة القادمين . . . استيقظت فى الفجـر وكـان زئـير السيارات والـدبابات يأتى من بعيد كهزيم رعد لاينقـطع ، الـوجـل والقلق واللهفة ونظرات الأم والأب عبر النافذة تتـطلع إلى حيث الطابور القادم من خلف التل كالوحش الكاسر ، وهزيـم السيارات والدبابات يقترب ويقترب ، وحركة أبيها وهو يذرع



البيت جيئة وذهابا ، وشحوب أمها وبكاء اختها لكنها ارتجفت حتى الأعماق عندما شهقت أمها مشيرة الى حيث مدخل البلدة فاذا هى قد حوصرت من كل اتجـاه. . . فى الليلة السـابقـة وبعد انسحاب جنود الوطن وقد أخذ منهم الاعياء والتعب كل مأخذ ، اجتمع الرجال فى الكنيسة ـ هكذا عرفت فيما بعد وهى تستعيد مع الكبار أحداث اليوم المـروع ـ واستقـر الـرأى على أن يلزم الجميع بيوتهم عنـد مجىء الامريكيين . . . اتفق أهل البلدة على أن يتركوا الشوارع خالية للغزاة القادمين . . . من الخارج ارتفع صوت يتحدث فى الميكرفون بلغة لم تفهمها ، ورأت أباها ينصت باهتمام وقد شحب لونه شحوبا رهيبا . . . انتهى النداء فاذا الأم تسأل الأب عما يقول صاحب الصوت الزاعق فى الميكرفون ، واذا الأب يدمدم فى غضب :

« أى جنون هذا ؟ ! »

« ما الذى يطلبه الامريكيون ياكارل ؟ ! »

« انهم لايطلبون ولكنهم يسألون إن كنا سنستسلم أم سنقاوم ؟ ! »

حاولت الأم تهدئة زوجها فقالت فى رفق :

« أليس هذا من حقهم ؟ ! »

« أى حق والشوارع خالية والأبواب موصدة ! »

« كارل »

اختنق صوت الأب واحتقن وجهه وهو يهدد :

« إنه الاذلال . . . إنهم يريدون اذلالنا ! »

عاد الصوت يسرى فى سماء البلدة عبر الميكرفون فصاح الأب :

«انه يسأل مرة أخرى . . . انه يعيد السؤال ! »

هتفت الأم فى فزع :

« لم لانعطيهم مايريدون ؟ ! »

التفت الهركارل نحو زوجته وكانت نظراته تطلق حمماً ، فصاحت الأم ملتاعة :

« من أجل الصغار . . . من أجل كل الصغار فى البلدة ياكارل ! »

همّ الرجل بالرد لكن نظرة منه حانت نحو النافذة فاذا به يتصلب كمن مسته صاعقة ، بدا جاحظ العينين شاحب الوجه مرتجف الملامح . . . اندفعت زوجته نحو النافذة فى هلع :

« كارل . . . ماذا هنالك ؟ ! »

ماإن وصلت إلى النافذة والقت ببصرها إلى الخارج حتى ارتدت شاهقة :

« انهم يرفعون العلم الأبيض فوق الكنيسة ! »

عاد الصوت الزاعق فى الخارج عبر الميكروفون يتصايح من جديد ، اختنق صوت الأم متسائلة فى هلع :

« ماذا يقول هذا الجندى بحق السماء ؟ ! »

ترنح الهر كارل فى وقفته ، خطا نحو مقعده والقى بنفسه فوقه وهو يقول :

« أنه يطلب إلى كل بيت أن يرفع على بابه علما أبيض ! »

ككرة من مطاط ارتدت زوجته نحو دولاب فى طرف المكان وهى تهتف :

« فلنعطهم مايريدون ! »

وكان الأب يتمتم :

« إنه الإذلال . . . إنه الإذلال ! »

فى هلع كانت الأم تبحث فى الدولاب حتى أخرجت منه مفرشاً



أبيض فردته أمام زوجها الذى رفع رأسه اليها وقد جحظت عيناه وأحمرتا وكانت هى تتوسل :

« ليس من أجلنا ، ولكن من أجل الصغار ! »

ونكس الرجل الشاهق رأسه . هيلين لاتنسى تلك اللحظة ولو عاشت ألف عام ، رأت أباها ينكس رأسه ، وجسده يهتز بعنف ، ودموعه تتساقط ! !

وعندما كانت الأم تضع المفرش فوق عصاه أتت بها من الداخل ، وعندما فتحت باب البيت وتقدمت حاملة علمها الأبيض كى تعلقه على الباب ، كان الأب ينوح :

« انتهى كل شىء ، انتهى كل شىء ! »

يومها أقسمت هيلين شيبربور ـ وهى فى السابعة من عمرها ـ ألا ترفع العلم الأبيض مرة أخرى ، أبداً !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

« سيدتى . . . سيدتى ! »

التفتت هيلين نحو فرانز فى دهشة ، كان هذا قد اقترب منها حتى كاد يلتصق بها

« ماذا بك يافرانز ؟ »

« هل سيدتى على مايرام ؟ »

دهشت وهى تستدير بكليتها نحوه :

« نعم . . . لم السؤال ؟ ! »

فى حنان جاءها صوته :

« عفوا سيدتى . . . ولكنى ظننت أيادى عليك دون أن . . . . . . »

قاطعته وقد أدركت ماحدث :

« كنت أتذكر يوم العلم الأبيض ! »

تقلصت ملامح فرانز فلقد كان يعرف أيه ذكرى أليمه فى حياة سيدته هذا اليوم . . . تمتم :

« هل أنت خائفة ؟ ! » .

« ربما ! »

قالت هذا وهى تهرب من نظراته فعاد يسأل مقتربا من هدفه :

«هل أتيك بالشاى ؟ ! »

نظرت فى ساعة يدها وهى تتمتم :

« ليس هناك وقت ، سيصل الضيفان بعد ثوان ! »

اقترب من هدفه أكثر :

« هل هما غريبان ؟ ! »

« لست أدرى يافرانز . . . فى الحقيقة انى لا أعرف يقينا ! »

« هل هما اسرائيليان ؟ ! »

التفتت نحو العجوز مبتسمة ، قالت :

« أرجو ألا يكونا كذلك ! »

همّ العجوز بالسؤال عندما غمر البهو شعاع ضوء السيارة التى كانت تقترب من البيت ، التفت كلاهما نحو النافذة ، وكانت السيارة قد أكملت دورتها حتى توقفت أمام الباب الخارجى للحديقة .

« لقد وصلا ! »

وكانت جملتهاايذانا بانصراف فرانز على عجل كى يستقبل الضيفين !

●●●

لم يكن الضيفان اللذان وصلا الى منزل أرملة المرحوم « ديفيد شارل سمحون » ، سوى الشابين اللذين ، قبل أربع وعشرين ساعة



بالضبط ، دخلا الى مطار القاهرة الدولى : صاحب المحلات التجارية ، ومهندس التبريد الذى كان فى صحبته .

كان الجو فى الخارج قارس البرد ، ولذلك فعندما عبر الشابان الحديقة ووصلا الى باب البيت ، كان فرانز العجوز هناك فى استقبالهما ، وكانا يرتديان معطفين ثقيلين ، كما كانا يضعان قبعتين تخفيان ملامحهما . . . قال أحدهما مخاطباً فرانز :

« اننا على موعد مع فراوسمحون ! »

« أفسح العجوز الطريق الى الداخل :

« انها فى انتظار كما ياسيدى ! »

دلفا الى البيت بسرعة التماسا للدفء ، أغلق فرانز الباب وتسلم معطفيهما وقبعتيهما ، ثم قادهما الى الداخل . وهناك ، بالقرب من البيانو الأبيض ، كانت « فراوسمحون » تقف فى استقبال ضيفيها !

. . .   . . .   . . .   . . .

. . .   . . .   . . .   . . .

كان أكثر ما أدهش السيدة سمحون فى هذين الشابين ، ليس اتقانهما اللغة الألمانية فقط ، بل لأنهما أيضا كانا يتقنان فن الحديث !

ما إن اشارت إليهما بالجلوس حتى كان فرانز يدفع أمامه عربة الشاى فى خفة ورشاقة ، حتى استقرت العربة الى جوارها فقال :

« هل تأمر سيدتى بشىء آخر ! »

ابتسمت هيلين وهى تنظر اليه فى امتنان قائلة :

« شكراً يافرانز ، ويمكنك أن تنصرف إذا أحببت ! »

« سأبقى حتى البى أي طلبات للسيدين ياسيدتى ! »

جاءت جملته حاسمة حازمة وكأنها قرار فلم تعترض ، أحنى رأسه فى أدب ثم انسحب على الفور ، لمحت السيدة سمحون على وجهى الشابين علامات اعجاب فقالت مجاملة :

« لابد أنكما فى حاجة إلى شراب ساخن ، فالجو فى الخارج شديد البرودة ! »

ابتسم أحدهما وكانت ملامحه تنبىء عن حزن حقيقى :

« لايعادل برودة الجو فى بلادك ياسيدتى سوى دفء استقبالك لنا ! »

رفعت اليه عينين دهشتين ، أثلجت المجاملة صدرها ، أرادت أن تردها له ، قالت وهى تصب الشاى :

«ولا يعادل رقة حديثك سوى اجادتك للغة الألمانية ! »

قال الثانى مبادراً :

« لابد أن فراو سمحون تعرف مدى اعجاب الشعب المصرى بألمانيا وشعبها ! »

كانت هذه أول إشارة من الشابين تنبىء عن جنسيتهما . . . داخلتها راحة صادرها على الفور خوف عربيد . . . فمن يدريها أنهما مصريان حقاً ... لقد سافرت الى اسرائيل كما زارت مصر ، وهى تعلم يقيناً أن الملامح متقاربة الى حد كبير . . . ثم ، ألم يقل لها ديڤيد انه ولد فى مصر ، وعاش فيها حتى صدر شبابه ؟ ! !

سرعان ماردعت فى صدرها هذا الاحساس بالارتياح ، قدمت لهما فنجانى الشاى وسألتهما إن كان أحدهما يرغب فى قطعة من الكعك . . . ما إن اعتذرا ، واعتدلت هى فى جلستها ، حتى قال الأول باسلوب مباشر :



« سيدتى . . . اسمحى لى أن أقدم لك عزاء الشعب المصرى والحكومة المصرية وجهاز المخابرات المصرى معاً ! »

أحنت هيلين رأسها شاكرة ، فاستطرد الفتى :

« كان من حسن التدبير أنك أرسلت رسالتك مع الهر نهاد كامل ! »

داهمها اضطراب مفاجىء ، فها هى تترك لهما الحبل على الغارب دون أن تحتاط ، هتفت بصوت جاء مرتجفاً بالرغم من لهجة السخرية التى حاولت اظهارها :

« ألا يحق لى أن اعرف اسم من اتحدث اليه ؟ ! »

همّ الفتى بالحديث ، فوضعت فنجان الشاى جانبا ، واستطردت وكأنها تقف خلف أحد المتاريس فى ساحة قتال :

« انك ياسيدى لم تقدم لى نفسك صباح اليوم ، وبالرغم من ذلك ، فلقد سمحت لنفسى أن استقبلك حتى نسوى تلك الأمور التى قلت إنها معلقة بين شركتينا ! »

لم يسفر هجومها المباغت عن شىء ، فلقد ابتسم الفتى وقال فى وضوح آسر :

« وهل للاسماء فى مثل هذا الموقف قيمة حقيقية ؟ ! » .

جاءت كلماته مباغتة ، وكان على حق ، فلقد كان يستطيع ، وهو يستطيع ، أن يدعى لنفسه أى اسم ، ازداد اضطرابها لولا أنه عاد الى الحديث :

« لقد حمدنا لك أيضا ياسيدتى أنك أرسلت الرسالة على الالة الكاتبة ، حتى التوقيع ، دون ذكر اسم المرسل اليه !»

كان يعطيها الدليل الكامل على ان رسالتها قد وصلت اليهم . . .

ولكن ، من هم ؟ ! . . . تململت فى جلستها وهى تفرك كفيها ، فهال نحوها الفتى وكأنه يعفيها من كل هذا التردد قائلا :

« لم لانحسم الأمر الآن قبل أن نسترسل فى الحديث ؟ ! »

رفعت اليه عينيها متسائلة عما يقصد، وكان هو يضع فنجان الشاى جانبا ، ثم يخرج حافظة نقوده ، لتمتد أصابعه اليها فى حنكة من يعرف طريقه جيدا . . . ومالبث أن أخرج ورقة مالية غريبة الشكل ، ونهض اليها مقدماً تلك الورقة المالية قائلا :

«هذه نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم ! »

اعتراها اضطراب عنيف ، وتساءلت كيف غفلت عن هذا الأمر ، وداهمتها صور من الماضى البعيد راحت تتكاثف وتتصاعد الى رأسها فى سرعة فكأنها تفتح جرحاً لم يندمل رغم مرور السنين ، امتدت يدها لتأخذ نصف الورقة المالية ، هتف فى داخلها هاتف أن احذرى فلم تظهر ما كان يعتمل فى صدرها من انفعال ، جاء صوت الشاب واثقا :

« لقد الغى هذا المارك وأنت لاتزالين صبية صغيرة فى بلدة خام ! »

كانت نظرة واحدة الى نصف الورقة المالية الذى قدمه لها الشاب كافية لأن تدرك كل شىء ، لكن هذا الذى قاله جعلها تنتفض انتفاضة من وجد نفسه عاريا فى الطريق العام . . . اختلطت الذكريات البعيدة والقريبة فى اضطراب عنيف ، من هذا الفتى الذى يعرف عنها كل شىء ؟ . . . ثم من هذا الفتى الذى يعرف حياتها فى « خام » التى غادرتها منذ عشرات السنين وان كانت جذورها لاتزال باقية فى تلك البلدة البعيدة ؟ . . . عادت تنظر الى الورقة المالية فى امعان فلم تستطع أن تخفى اضطرابها الذى تزايد ، وعندما عاد الفتى الى الحديث رفعت إليه عينين دامعتين ، فلأول مرة ـ منذ أن رحل ديڤيد ـ



كانت تشعر بالراحة والأمان . . . قال الفتى الشرقى وكأنه يداعبها :

« كنت فى العاشرة من عمرك عندما الغى هذا المارك . . . أليس كذلك ؟ ! »

هزت رأسها ايجابا وأيقنت الآن أنها سارت فى الطريق الصحيح ، فعلى أحد وجهى نصف الورقة ، كان خط ديڤيد هناك ، وكانت كلماته تقول : « . . . . . . . هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! » ثم كان توقيعه أيضا ، ذلك التوقيع الذى لايمكن لعينها أن تخطئه !!

عاد الفتى الشرقى إلى الحديث مرة أخرى :

« لو أنك بحثت فى حافظة نقود الهرسمحون ، فلسوف تجدين النصف الثانى لهذه الورقة المالية ، ولسوف تكتمل الرسالة بالتأكيد ! »

قالت بصوت مرتجف وهى تنهض من مكانها :

« لقد عثرت عليه فى اليوم التالى لوفاته ! »

ابتلعت عيناها الدموع فى محاولة جاهدة لتتمالك نفسها :

« لكم حيرنى الأمر ... كنت . . . ولكن . . . لا استطيع . . . ان . . . عفواً . . . لحظة . . . هل ؟ !! »

توقفت ، تمالكت نفسها وهى تندفع نحو السلم المؤدى الى الطابق العلوى :

« هل تسمحان أيها السيدان ، لحظات وأعود اليكما ! » .

هرولت صاعدة الدرج حتى اختفت ، أحس الشابان بحركة خلفهما فالتفتا بسرعة وكان فرانز يقف هناك عند باب نصف مغلق . . . ابتسما له فى ود فسأل :

« هل يأمر السيدان بشىء ؟ ! »

قبل أن يرد احدهما عليه ، جاء صوت هيلين وهى تصيح فى لهفة من فوق الدرج :

« فرانز . . . فرانز ! »

اندفع فرانز مهرولا نحوها وكانت هى تخطف الدرج خطفاً :

« سيدتى ! »

عندما وصلت هيلين الى نهاية الدرج كانت تحمل فى يديها نصفى ورقة مالية من فئة المائة مارك المانى الذى الغى فى عام ١٩٤٨ ، كان كل نصف من النصفين مكملا للآخر تماما . . . مدت يديها نحو العجوز :

« هل تذكر هذه الورقة ؟ ! » .

ولم يكن فرانز فى حاجة لأن ينظر أو يتذكر ، هذا السر الذى أطلعته عليه سيدته ذات يوم بعد وفاة « السيد » فبدا له لغزا محيرا . . . لم يكن فى حاجة الى أن ينظر أو يتذكر ، فلقد كان القلق يأكله على سيدته التى كانت ترتجف الأن أمامه بسعادة غريبة !

. . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

حدث هذا فى اليوم التالى لوفاة الهرسمحون مباشرة . . . كان ماقاله لها ديڤيد قبل أن يسلم أنفاسه الأخيرة محيرا ومخيفا ، وأصبح عليها أن تفكر فيما يجب أن تفعله ... ولم يكن هذا سهلا ، راحت تقلب الأمر على كل وجه ، ثم أدركت فى النهاية - من أجل الصغيرين - أنه لابد من البحث عن الحقيقة مهما كان الثمن !

فى اليوم التالى للجنازة أغلقت عليها الأبواب ففسر الجميع ماحدث



على انه مزيد من الحزن ، فتحت ادراجه وراجعت اوراقه وقلّبت فيها وقرأت كل سطر وبحثت فى كل ملف ، فبدا لها كل شىء طبيعيا تماما . . . ازدادت حيرتها وكادت تركن الى القول بأن ماقاله ديڤيد لم يكن سوى هذيان دفعته اليه الآلام ، عادت الى الاوراق مرة ومرة ولم يكن معقولا أن يقول ديڤيد ماقاله دون أن تكون هناك اشارة اليه فى الأوراق . . . لكنها عندما أمسكت بحافظة نقوده عثرت فيها على نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم . . . دهشت وهى تتذكر تلك الايام السوداء من عام ١٩٤٨ ، عندما الغى المارك الألمانى ليحل محله مارك جديد ، كانت صبية فى العاشرة من عمرها لكنها تذكر جيدا كيف فقد الناس أموالهم ومدخراتهم بعد ان اصبح على الواحد منهم ان يغير مايملك بثلث قيمته فقط ، تذكرت كيف صرفوا لكل فرد أربعين ماركاً وكان عليه أن يبدأ بها حياته من جديد ، من الصفر ومما تحت الصفر . كان على الشعب الألمانى كله أن يبدأ فى بناء بلده . . .

غير أن نصف الورقة التى عثرت عليه فى حافظة نقود ديڤيد كان يحمل رسالة موجهة اليها ، رسالة ناقصة .. فعلى أحد وجهى العملة قرأت :

« هيلين . . ضعى ثقتك فى . . . . . . . . . »

ثم لاشىء !!!

بدا لها الأمر غريبا فعادت تبحث فى أوراقه من جديد لعلها تعثر على النصف الأخر ، تساءلت بينها وبين نفسها إن كانت هناك علاقة بين ما أفضى اليها به وبين هذه الورقة المالية الغريبة . . . أدركت أنه لابد وأن تكون هناك علاقة ما . . . تحدثت إلى فرانز عن الرسالة الناقصة لكنها لم تجرؤ على البوح له بسرها المروع . . .

و . . . وهاهما النصفان الآن متجاوران فى يديها وكانت الرسالة قد اكتملت أمام عينيها وعينى فرانز معاً . . .

راح كل منهما يعيد قراءة الرسالة مرة ومرة وكأنه لايصدق عينيه ، كانت الرسالة تقول بعد أن اكتملت :

« هيلين . . . ضعى ثقتك فى هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! »

وكان التوقيع « ديڤيد » .

رفع فرانز عينيه نحو سيدته متسائلا فى اضطراب :

«هل سيدتى واثقة من أن هذا هو توقيع الهرسمحون ؟ ! ! »

« دون شك ! ! »

قالتها هيلين فى ثقة وهى تخطو نحو الشابين وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عرفان ، نهض الشابان لاستقبالها فى أدب فوقفت قبالتهما وهى تمد اليهما يديها قائلة :

« يخيل إلىّ أن من حقكما أن تطلعا على نصفى الآخر ! ! »

قال أحدهما وكان قد اختطف نظرة سريعة وحادة الى نصفى الورقة المالية :

« إنهما الآن من حقك وحدك ياسيدتى ، فالرسالة موجهة إليك أنت ! »

كانت هيلين الآن شامخة ، وكانت سعيدة ... التفتت نحو العجوز قائلة :

« فرانز ياصديقى ... تستطيع الآن أن تنصرف مطمئنا ، إنهما صديقان ! »

ولأول مرة منذ دخل الشابان الى البيت ، عرف الابتسام طريقه الى



شفتى العجوز الذى ضم قدميه فى أدب المانى صارم وهو يحنى رأسه محييا سيدته :

« سيدتى ! »

ثم مالبث أن التفت نحو الشابين ، وأحنى لهما رأسه فردا تحيته . . .

ثم استدار ومضى . . . وكانت خطواته تبدو راقصة ! !

●●●

كان لاكتمال الورقة المالية القديمة ، وبالتالى اكتمال تلك الرسالة الغامضة التى وجهها ديڤيد شارل سمحون الى زوجته هيلين ، تأثير السحر عليها . . . ففى الدقائق التالية لمغادرة فرانز للبيت،انكرت هيلين على نفسها ذلك الاحساس الغامر بالراحة والسعادة معاً وهى ـ فى حقيقة الأمر ـ لم يكن يعنيها أن يَصْدُق ماقاله زوجها قبل وفاته أو يكون هذيانا ، فلقد كانت هذه حياته وهو حر فيها . . . ولكن كان مايعنيها فى الدرجة الأولى أن تعرف الحقيقة قاطعة . . . ذلك أن الأمر لا يخصها بقدر مايخص الصغيرين ومستقبلهما ، بل . . . وانتماءها إلى شعب بعينه . . . وكانت الآن ، وهى تجلس قبالة هذين الشابين تعرف يقينا أنها تقترب من الحقيقة بسرعة لم تتخيلها !

عادت الى مقعدها وهى تضم نصفى الورقه المالية بيديها وكأنها تضم كنزا . . . استردت نفسها واعتدلت فى مقعدها وهمت بالحديث عندما بادرها أحد الشابين :

« سيدتى . . . لابد لنا من توضيح نقطة تبدو شديدة الأهمية ! »

نظرت إليه بإعجاب ، تساءلت بينها وبين نفسها : اذا كان المصريون بمثل هذا الحذق وهذه القدرة على السيطرة على المواقف وأخذ زمام الأمور فى أيديهم ، فما هذا الذى يقال عنهم ؟ ! . . . أومأت

للشاب بأن يستمر فعاد الى الحديث وهو يضغط على حروف كلماته كى يؤكدها :

« إنه على درجة كبيرة من الأهمية أن نقول : إننا لسنا مفوضين بسماع شىء منك ، كما أننا لانملك إجابة على أى سؤال قد يخطر ببالك ! ! »

كتمت أنفاسها وكأنها لاتريد لكلمة أن تفوتها ، واستطرد الشاب :

«إننا ـ مع تعازينا القلبية وأسفنا الشديد لوفاة الهرسمحون ـ نرجو أن تقبلى دعوة الحكومة المصرية لقضاء أى عدد يروق لك من الأيام فى القاهرة ! »

عاد القلق يتسلل إليها من جديد ، وصمت الشاب لثوان التقط فيها أنفاسه كمن يستعد لقول على درجة هائلة من الأهمية :

« وان كنا نفضل ـ إن قبلت الدعوة ـ أن تتم الزيارة بشكل سرى ! »

مرة أخرى صمت الشاب وكأنه يعطيها الفرصة كى تستوعب ماقاله جيدا . . . لكنه عاد الى الحديث فى لهجة ودود خلت من تلك الصرامة التى بدت فى حديثه السابق :

« فى القاهرة ، ستكونين ضيفة عزيزة على الشعب المصرى . . . كما أنك هناك سوف تجدين الاجابة عن كل سؤال قد يخطر ببالك أو يعن لك ! ! »

فى سرعة رهيبة كان عقلها يعمل !

زيارة سرية ؟ !

مامعنى هذا ؟ !

ثم . . . الى اين ؟ !

الى القاهرة حيث لاتعرف انسانا ؟ !



وبالرغم من أنها اختطفت نظرة من نصفى الورقة المالية وكأنها تعيد قراءة رسالة ديڤيد مرة أخرى ، فإن الأمر بدا لها غريبا ، بل بدا لها باعثا على الاضطراب والخوف . . .

حقا ، إن ماحدث الآن يدعو الى الاطمئنان والثقة ، ولكن . . .

هل من الممكن أن تسلم نفسها لشابين لم ترهما الا منذ دقائق ؟ !

كان الأمر مربكا . . . فمن أين لها أن تطمئن الى أنها سوف تعود الى طفليها بسلام ؟ ! . . . طال الصمت وكانت فى حاجة الى المزيد من التفكير فقالت فى محاولة لكسب بعض الوقت :

« لابد أنكما تعرفان أن هناك عشرات الأسئلة قد خطرت ببالى ! » .

« بكل تأكيد ! ! » .

« لقد كان الأمر فى الحقيقة مروعا ومربكا بالنسبة لى فاننى عندما . . . . » .

أوقفتها نظرات الشاب المحذرة وتذكرت على الفور قوله إنهما ليسا مفوضين لسماع شىء أو لقول شىء . . . هى لاتفهم من كل هذا شيئا ، وعندما ظنت أنها اقتربت من الحقيقة إذا الحقيقة تبتعد عنها الوف الأميال ، إذا الحقيقة فى القاهرة . . . أرادت المراوغة فسألت :

« متى أستطيع تلبية الدعوة ؟ ! » .

« فى الوقت الذى تشائين ! » .

هاهو ذا الفتى ببراعة يضع الأمر كله بين يديها ، وهى الآن تستطيع أن تفكر وأن تتردد وأن تشك . . . ترى ، من كان هذا الرجل الذى أحبته وتزوجته وعاشت معه وأنجبت منه طفلين دون أن تعرف عنه شيئا . . . تمنت لو أنها استطاعت ـ بل أنها همت بأن تفعل هذا ـ ان

تطلب إليها مهلة للتفكير ، لكن شيئا فى أعماقها كان يدفعها دفعا الى السير فى الطريق حتى نهايته . . . كانت تكره الخوف وتحتقره ، كانت قد أقسمت ألا ترفع العلم الابيض ، فهل تفعل ؟ ! . . . عادت تراوغ من جديد علها تهدىء المعركة الدائرة فى صدرها :

« لقد ذكرت شيئا عن السرية ياسيدى ! » .

فى حسم من يعرف طريقه قال :

« إن سلامتك وسلامة الصغيرين لابد ان توضعا فى المقام الأول من اهتمامنا ! » .

« وماذا علىّ ان افعل تجاه هذه السرية المطلوبة لسلامتى وسلامة طفلىّ ! » .

« لاشىء من ناحيتك سوى ألاتذكرى لأحد ـ مهما كان صديقا أوقريبا ـ أنك ستطيرين الى القاهرة ! »

« لكنى بالتأكيد سأتغيب بعض الوقت ! » .

«ولذلك ، فيمكنك القول بأنك مسافرة لزيارة شقيقتك فلورا فى بلدة خام ! » .

اعتدلت هيلين وقد وجدت سببا للاحتجاج ، فما مدى مايعرف عنها هذا الشاب الأسمر . . . هتفت :

« أيها الشاب ؟ ! » .

استمر فى حديثه هادئا :

« وأنت غالبا ، كلما ذهبت الى خام ، تتحدثين الى الدكتور كارل جاروسلاف فى تشيكوسلوفاكيا ، وهو الطبيب الذى يشرف على العلاج الطبيعى الذى تزاولينه كل عام فى تلك المصحة النائية فوق جبال الـ . . . . . . . » .



قاطعته هيلين وهى تهب واقفة وقد اكتسى وجهها بحمرة غضب لاتخفى :

« سيدى . . . . إن هذا كثير ! ! » .

وقف الشابان فور وقوفها ، وقال الفتى فى هدوء من أدهشه مايحدث :

«ولكن الهرسمحون ذهب معك مرتين للاستشفاء بالمياه المعدنية ! » .

نظرت إليه غير مصدقة وقد أحست أنه سكب فوقها دلوا من المياه الباردة ، شعرت هيلين بأن ما كان يقوله الفتى ليس سرا بأى معنى من المعانى وهى لا تعرف لم انتابها الغضب فجأة . . . أرادت أن تعتذر فعادت الى مقعدها وهى تغمغم :

« ربما كنت على حق . . . ربما كنت على حق ! » .

عاد الشابان الى الجلوس فاستطردت :

« ارجو أن تعذرنى فالأمر يبدو بالنسبة لى غريبا بكل المعانى ! »

« فى استطاعتى أن افهم ذلك جيدا ! » .

واجهته الآن كالمتحدية :

« واذا ما اتصلت بالدكتور كارل ؟ ! » .

« سيحدد لك موعدا اذا ماطلبت أنت » .

«هذا صحيح » .

« وعادة مايكون الموعد بعد ثلاثة أيام أو أربعة ! »

« وهذا أيضا صحيح ! » .

« وأيا ما كان الموعد ، فلسوف تغادرين خام فى اليوم التالى ، وتتبعين نفس خط سيرك الذى اعتدت عليه كلما ذهبت الى

تشيكوسلوفاكيا للاستشفاء ! » .

التمعت عيناها بنظرات صارخة . . . واستطرد الشاب متجاهلا نظراتها :

« ستستأجرين سيارة تعبر بك الحدود الى مدينة « كلاتوفى » التشيكوسلوفاكية ، حيث اعتدت ان تجدى سيارة المصحة فى انتظارك ! » .

« هل هذا معقول ؟ ! » .

«فى نفس المكان ستجدين سيارة أخرى فى انتظارك ! » .

« ثم ؟ ! » .

« لن تحملك السيارة الى المصحة بطبيعة الحال ، ولكنها ستحملك الى مطار براغ . . . وهناك ستلحقين بالطائره المقلعة إلى القاهرة فى المساء ! » .

« ومتى أذهب إلى المصحة ؟ ! » .

« عندما يحل موعد الطبيب ! » .

الى هنا لم تستطع هيلين الاحتمال ، سددت اليه نظراتها متسائلة :

« الا ترى أيها الشاب أنك تعرف عنى الكثير؟ ! » .

فى حسم ووضوح ، وبلا مداراة ، جاءها رده :

« سيدتى . . لقد كان الهرسمحون يعنى الكثير لبلاده ! » .

بدت لها إجابة الفتى رفيعة الى الحد الذى ألجمها فاعتدلت فى جلستها ، غير أنها ـ لسبب غامض ـ ارادت المقاومة فقالت :

« ولكن . . . ما السبب فى كل هذا اللف والدوران ! » .

« انه نفس السبب الذى من اجله ارسلت خطابك بالآلة الكاتبة ، حتى التوقيع . . . وفى جملة واحدة لاتعنى شيئا الا لمن يهمهم الأمر ! » .



ساد الصمت لثوان عاد بعدها الشاب الى الحديث فى نبرة من يؤكد كل كلمة من كلماته :

« مرة أخرى ياسيدتى . . ان السرية مطلوبة لحمايتك وحماية الصغيرين ! » . . .

تلقت كلمات الشاب فى صمت ، كانت الآن ، ربما للمرة الألف ، تتساءل :

من هذا الرجل الذى كان زوجها وحبيبها ، والذى يعنى بلاده الى هذا الحد ؟ . . . وعلى كل ، فلقد أحست أنها هزمت فى مباراة رياضية ، وأن عليها أن تصافح خصمها ، فقالت فى رقة :

« كنت أفكر ، كما أخبرتك فى الصباح ، ان اقضى بقية الاسبوع فى بريمن ! » .

ابتسم الشاب وقد أدرك أنها توصلت الى قرار ، واستطردت هى بنغمة من يعلن موافقته :

« فلم لا اقضى هذه الايام فى القاهرة ! » .

قالت هذا وهى تبتسم ابتسامة واضحة اعتبرها الشاب اعتذارا عما بدر منها ، فمال نحوها ـ كما هى عادة الشرقيين اذا ماتحدثوا الى انسان عزيز يبعد عنهم قليلا ـ وهو يقول :

« لقد اعتدت ياسيدتى كلما سافرت الى خام فى زيارة عائلية ، ان تستقلى الطائرة الى فرانكفورت ، ثم تستأجرى سيارة تقطع بك الطريق الى مسقط رأسك ! » .

هتفت ضاحكة :

« هذا شىء لايصدق ! » .

بدا الشاب وكأنه لم يسمع ماقالت ، أخرج من جيبه الداخلى تذكرة

طائرة قدمها خاطيا نحوها :

«هذه تذكرة فى الطائرة التى تقلع عادة فى الظهر الى فرانكفورت ! » .

كانت مندهشة الى الحد الذى أحست فيه انها أصبحت مسلوبة الارادة . . . وبالرغم من تمردها الداخلى ، فلقد مدت يدها وتناولت منه التذكرة ... فاذا به يخرج من جيب آخر جواز سفر أحمر اللون قدمه لها :

« وهذا جواز سفر مصرى ! » .

بدت وهى تتناول منه الجواز وكأنها تحلم .

« إنه كما ترين جواز سفر دبلوماسى ! »

ابتسمت رافعة اليه عينيها فى تساؤل :

« وهو الجواز الذى ستغادرين به تشيكوسلوفاكيا ، ثم تعودين به اليها ! » .

بدت هيلين الآن ذاهلة تماما ، فتحت الجواز بحركة لا إرادية ، ما ان شاهدت صورتها حتى اعتدلت فى جلستها ، انتبهت ، اختطفت نظرة من الفتى فوجدته باسما على استعداد لاستقبال نظرتها ، فلقد قال وهو يعود الى مقعده :

« إنه يحمل اسما مصريا بالطبع ! »

عادت تنظر الى الجواز ، وكان الاسم مكتوبا بالعربية كما هو مكتوب بحروف لاتينية ، وجدت نفسها تقرؤها بصوت عال :

« هيلانة رأفت الهجان ! » .

هتف الفتى :

« إن اسم هيلانة لقديسة مصرية ! »



قالت ساخرة :

« لست أعتقد أنى استحقه ! » .

« ولكنه الاسم العربى لهيلين ! ؟ ! »

« وماذا عن رأفت الهجان »

« أنه مجرد اسم ! ! »

« قبل ان تلتقط أنفاسها استطرد :

« فى السيارة التى ستقلك الى براغ ، ستتسلمين تذكرة على إحدى طائرات الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية ! » .

ولم تفه هيلين بكلمة ، كانت تشعر بأنها فى حلم غريب ، كان انتقالها من حياتها العادية إلى هذا الذى يحدث مفاجأة لم تستعد لها ، بل ، لم تخطر ببالها ... غير أنها ـ فى نفس الوقت ـ كانت تحس بمزيج غريب من الخوف المشوب بلذة فائقة ، كان إحساسها بأنها مسلوبة الإرادة يخبو ليحل محله ذلك الاحساس الفائق بالمتعة اذا ماكانت تشاهد فيلما من أفلام التوتر . . . أنها ـ حقا ـ تشعر وكأن أحدا يقودها الى طريق غامض ، ولكنه ـ أي الطريق ـ يبدو مثيرا للغاية ، وبنفس القدر من القوة . . . لوحت فى وجه الشاب بالتذكرة متسائلة فى سخرية :

« أرى أنك حددت ايضا موعد سفرى من تلقاء نفسك ! »

« هذا غير صحيح ! » .

رفعت حاجبيها دهشة فاذا هو يستطرد :

« إن التذكرة مفتوحة . . . وكل مانطلبه إليك ان تبلغينا بموعد سفرك حتى نكون دائما هناك ، معك ، ومن حولك ، وفى استقبالك» .

فى تلك اللحظة ، أحست السيدة هيلين سمحون ، بأنها تلقى

بكـل مخاوفهـا وشكوكها وعنادها خلف ظهرها . . . فلقد قالت على الفور وكأنها تقبل التحدى تماما :

« هل يناسبكم الغد ؟ ! » .

« أهلا بك فى أى وقت ! » .

« اذن . . . فإلى الغد !! » .

على الفور نهض الشابان مستئذنين فى الانصراف !

وفى الحقيقة فان هيلين عندما قالت جملتها الأخيرة ، لم تكن تنهى المقابلة ، ذلك أنها أحست بأنها تريد استبقاء الشابين لفترة أطول ، فعادت الى الحديث متسائلة :

« بالنسبة للسرية التى ذكرتها ، أليس مطلوبا إلىّ أى شىء ؟ ! » .

ابتسم الشاب وهو يختطف من زميله نظرة غمض عليها معناها :

« لاشىء بالمرة سوى . . . . . . . . »

صمت مبتسما فاستفسرت :

« سوى ؟ ! » .

« سوى نظارة شمسية من النوع الذى لم تعتادى أن ترتديه . . . ولتكن نظارة من هذا النوع الحديث والسخيف !! » .

ضحكت ناهضة اليهما ، همت بالحديث فأوضح :

« على ألا ترتديها الا وانت صاعدة الى الطائرة المتجهة الى القاهرة من براغ ! » .

كانت الآن تقف قبالتهما . . . وكانت تشعر بمثل هذا الدفء الذى أمدها به ديڤيد يوم تعرفت اليه . . . . يالشعوب الشرق هؤلاء ، غمرتها السعادة فجأة ، فاتسعت ابتسامتها ، وهى تمدلهما يدها قائلة :

« كم أنا سعيدة بلقائكما ! ! »



غادر الشـابـان البيت . . . ووقفت هيلين سمحون خلف زجاج النافذة ترقب سيارتهما وهى تنطلق مبتعدة ! .

كان الـظلام قد هبط الآن تماما ، وكان البهو مضاء فسارت الى مفـاتيح النـور واحـدا إثر الآخر ، أغلقت باب البيت بالمزلاج ، ثم عادت لتكمل إطفاء الأنوار .

الآن . . . كانت وحيدة فى البيت تمامـا ، وبرغم التدفئة ، فلقد شعرت بتيار من البرودة يسرى فى جسدها فارتجفت . هاهى ذى تذكرة الطائرة وجواز السفر ونصفا الورقة المالية هناك ، أمامها ، فوق مائدة صغـيرة مجاورة لمقعدها . . . . على الضوء الخافت الذى أبقته سارت والتقـطت الأوراق . . . تذكرت أن عليها أن تجرى بعض المكالمات التليفونية استعدادا لرحلة الغد . . . لكنها راحت تتساءل وهى تصعد الدرج الى الطابق العلوى :

ماهذا الذى حدث ؟ ! .

وكيف وافقت ؟ ! .

وأية مخاطر تزج بنفسها فيها ؟ !

ثم . . .

من هو ديڤيد شارل سمحون ؟ !

مصرى أم اسرائيلى ؟ ! . . . جاسوس أم بطل ؟ ! .

تزاحمت الاسئلة فى رأسها دون إجابات . . . فقررت أن تتوقف عن التفكير ، وأن تسعى وراء الحقيقة ، وأن تعرفها كاملة وعارية ! !

# الفصل الثالث

## زيارة سرية للقاهرة

لابد أن هذا الذى يحدث ، لاينتمى الى عالم الواقع الذى عاشته هيلين سمحون لأكثر من أربعين عاما ، تظن فى بعض الأحيان أنها تحلم حلما غريبا سوف تتندر به بعد أن تصحو من النوم ، وفى أحيان أخرى تشعر وكأنها تلعب دوراً فى فيلم ملىء بالاثارة . . . غير أن الفرق الوحيد ، هو أن الاثارة تحدث فى الواقع والحقيقة ، وليست على شاشة بيضاء أو سطور قصة فى كتاب شائق !

كان لديفيد سمحون الفضل فى ارتيادها عالم العاطفة المسحور بكل مافيه من أضواء وألوان ومتعة ، كان جياشا دافئا وكأنه اختزن عواطفه طوال العمر حتى يلتقى بها فتتدفق فى طوفان أخذ يكتسح فى طريقه كل شىء . . . كان سعيدا كصبى يقع فى الحب لأول مرة . . . كان . . . كان . . . ولكن ، ماالذى يدير شريط الذكريات فإذا الذى



كان يمر بها مر الكرام يصبح له معنى ؟ ! . . . سألته ذات مرة ، كيف بلغ هذه السن ، وكيف كانت له كل تلك التجارب ، وكيف عاش مثل تلك الحياة ، دون أن يقع فى الحب مرة ، قال :

« لم أكن أستطيع ! ! »

صاحت فيه مازحة طالبة إليه أن يكف عن المبالغة وإضفاء ثوب البطولة على حياته ، فحتى كفاحه ودفاعه وصراعه من أجل إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، لم يكن يمنعه من الحب والزواج ! !

قاطعها ديفيد فى حدة :

« لا . . ليس من أجل هذا ! »

كانت هذه من المرات القليلة ، بل النادرة ، التى رأت فيها الغضب فى عينيه ، شعرت أنها آذته دون أن تقصد ، حاولت الاعتذار فأوقفها باسماً فى حنان :

« ولكنك ذات يوم ستفهمين . . ذات يوم ستفهمين !! »

فهل آن لها أن تفهم ؟ !

وهل كان ديفيد يعلم أنه سيموت عندما راح يلتهم الحياة معها التهاما يبعث على الدهشة والحيرة والسعادة الغريب ، أنها لاتزال ، حتى بعد موته ، تسبح مع أمواجه العاتية ! ! !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

لم تستطع السيدة هيلين سمحون أن تشاهد القاهرة من الجو عندما وصلت اليها الطائرة بعد غروب الشمس . . . حجبت السحب الكثيفة سماء المدينة وغطتها تماما ، وكانت درجة الحرارة فيها ـ كما أعلنت المضيفة فى الميكروفون ـ تسع درجات مئوية !

اخترقت الطائرة السحب الكثيفة هابطة نحو الأرض ، فما ان تخطت ذلك الركام الضبابى حتى التمع رذاذ المطر الذى راح ينهمر فى رقة على أضواء كشافات الطائرة ، وكان له منظر يخلب الألباب . . . هاهى ذى أنوار القاهرة تبدو تحت المطر وكأنها عالم مسحور ، سألت ديفيد ذات مرة عن أحبِّ المدن إلى قلبه فهتف دون تفكير أو تردد :

« القاهرة . . . فليس فى الكون مدينة تعادلها جمالا ! »

ومنذ أن بدأت رحلتها عند الظهر انتظرت أن يظهر ضيفاها اللذان زاراها بالأمس دون جدوى ، كانت تشعر أنهما لابد ان يكونا هناك ، معها ومن حولها كما قالا ، ولكن عبثا . . . وطدت العزم ـ إن هى رأتهما فى هذا المطار أو ذاك أو حتى فى هذه الطائرة أو تلك ـ أن تتظاهر بأنها لاتعرفهما . . . لكنهما لم يظهرا طوال اليوم ، وبالرغم من ذلك ، كانت تشعر بوجودهما شعورا يصل إلى درجة اليقين !

فى مساء الأمس ، وقبل أن تأوى إلى فراشها ، تحدثت إلى مديرة مكتبها ، قالت انها ستطير فى اليوم التالى إلى « خام » فى زيارة عائلية ، كما أخبرت أولجا ـ سكرتيرتها ـ وفرانز العجوز فى الصباح . . . وكانت أوامرها مشددة بالنسبة لهم جميعا ، ألايتصل بها أحد هناك مهما كانت الأسباب ، وألا يعرف أحد أنها هناك !

عندما دخلت إلى مطار هامبورج كان أول مافعلته هو شراء نظارة شمسية ذات شكل غريب ومضحك . . . وكانت ، وهى تنتقى موديلا سخيفا ـ على حد قول الشاب بالأمس ـ تتساءل : من أين لهؤلاء المصريين أن يعرفوا أن ذوقها فى الملابس « دقة قديمة » ؟ ! . . . لكنها سرعان ماابتسمت ساخرة وهى تقول لنفسها : ومن أين لهم أن يعرفوا



طريقى الذى أسلكه كلما ذهبت الى « خام » ؟ !

قبل أن تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة فى مطار براغ ، وضعت النظارة الشمسية فوق عينيها ، وعندما نظرت فى المرآة ابتسمت فى دهشة حقيقية ، فلقد كان شكلها غريبا تماما ، إلى حد أنها أيقنت أن أحدا ممن يعرفها ، لايمكن ـ اذا مامر بها وهى ترتدى هذه النظارة ـ أن يميزها أو يتعرف عليها أو يتصور أن هذه السيدة التى تضع مثل هذه النظارة هى هيلين سمحون !

عندما صعدت إلى الطائرة كانت الدرجة الأولى خالية إلا من راكب واحد انتحى جانبا ، وفتح حقيبة أوراقه ، ووضع نظارة طبية ، وانحنى على الأوراق يقرأ ويدون ويكتب ويقلب ثم ينظر فى ساعة يده ويتأفف فى ملل من يتعجل الوصول ، ظل طوال الرحلة على هذه الحال . . . وبالرغم من ذلك فلقد أحست بشكل ما ، أنه هناك من أجلها ! !

هبطت الطائرة فى مطار القاهرة وكان الرذاذ لايزال يغسل الدنيا فى رفق ، تقدمت نحو الباب المفتوح وشكرت المضيفتين اللتين كانتا فى وداعها ، واللتين أولتاها رعاية خاصة عزتها إلى قلة عدد الركاب فى الدرجة الأولى . . . أفسح لها زميلها المتأفف الطريق فخطت تحت المظلة التى كان يحملها مضيف شاب كان يقف عند رأس السلم المؤدى إلى أرض المطار حيث كانت سيارة ميكروباس تابعة لشركة مصر للطيران فى انتظار راكبى الدرجة الأولى . . . تلفتت حولها وأمامها فلم تجد من هو فى استقبالها كما قال الشابان بالأمس ، ولربما نسى المصريون أنها قادمة فماذا عليها أن تفعل . . . عند باب السيارة مد المضيف يده ليساعدها على الصعود إلى الميكروباس ، صعدت إلى السيارة بسرعة

هرباً من الرذاذ وكان زميلها فى الرحلة وراءها ،وكان التأفف قد اختفى من ملامحه . . . على الفور أغلق الباب وتحركت السيارة مبتعدة عن الطائرة ببطء على الأرض المبتلة . . . ما ان ابتعدت السيارة بضعة أمتار ، ولم يكن بها سوى السائق الذى بدا منشغلا بالقيادة فوق الأرض المبللة ، حتى التفت المتأفف نحوها وكانت ابتسامته المرحبة تضىء تقاطيعه فكأنه تحول إلى انسان آخر :

« مرحبا بك فى القاهرة فراو سمحون ! »

التفتت إليه فى مرح ولم تملك نفسها من الصياح ضاحكة :

« لقد خمنت هذا . . لقد خمنت هذا بالفعل !! »

« هل تسمحين لى أن أقدم لك نفسى ؟ ! »

« أرجوك ! »

« حسين شكرى من المخابرات العامة المصرية ! »

كان يتحدث بالانجليزية ، وكانت انجليزيته واضحة ، اجتاحها المرح لسبب لاتدريه ، قالت :

« هل تعرف أنى كنت أفكر طوال الرحلة ، فى أنك كنت هناك من أجلى ؟ ! »

« إذن فنحن نتعامل مع ذكاء لابد أن نحسب له ألف حساب ! »

« لاتكن متفائلا ، فلقد نهرت نفسى بعنف وطلبت اليها ألا تجنح للخيال ! »

قالت هذا وهى تضحك فبادلها الضحك وكانت السيارة تبتعد فى أرض المطار عن مبناه الرئيسى حيث الأضواء والأنوار تغمر المكان . . . خفتت الضحكات فاكتسى وجه رفيقها بمسحة من الجدية ، اعتدل فى



جلسته اعتدال منْ سيقول كلاما ينبغى له أن يسمع جيدا :

« أحب أن أنقل إليك ترحيب الشعب المصرى بوجودك فى بلاده ! »

فى انطلاق وجدت نفسها تقول :

« ليتنى أستطيع أن أشكر الشعب المصرى على كرمه ورقته فى استقبال ضيوفه »

ولم يكن هناك مزيد من الوقت كى يتبادلا الحديث أكثر من ذلك ، فلقد توقفت السيارة فى مكان بدا لها غريبا ، الهاها الحديث عن النظر إلى الطريق فاذا هى فى مكان خافت الاضاءة بعيدا عن مبنى المطار الرئيسى ، فتح باب السيارة من الخارج فور وقوفها ، وأشار حسين شكرى إلى سيارة سوداء اللون المانية الصنع فاخرة كانت تقف هناك :

« تفضلى فراو سمحون ! »

هكذا قال مضيفها فشملت المكان المظلم بعينيها وأرادت أن تخاف لكنها لم تستطع ، غادرت الميكروباس إلى السيارة تحت مظلة كان يحملها سائق يرتدى زيا خاصا أنيقا تحت معطف مطر شفاف . . . ماان عبرت تحت المطر ودلفت إلى السيارة السوداء حتى هتفت :

« ولكن حقيبتى . . . . . . . . . »

ولم تكمل ، ولم تكن فى حاجة إلى ذلك ، فلقد رد الرجل الذى دلف خلفها وجلس إلى جوارها :

« لاتقلقى ياسيدتى ! »

●●●

فى إحدى الفيللات الأنيقة ، وسط حى راق من أحياء ضاحية مصر الجديدة ، قضت السيدة هيلين سمحون ليلتها ، وجدت فى الفيللا ـ منذ أن دخلتها ـ رعاية من نوع خاص ، قدمها لها مجموعة صغيرة من

الشبان والشابات الذين كانوا يتمتعون بمواهب عديدة ، سألها مضيفها إن كانت فى حاجة إلى شىء بعينه ، فشكرته قائلة :

« ليس أكثر من عشاء خفيف ، فلست أدرى أى يوم ينتظرنى غدا ! »

أرادت بكلماتها الأخيرة أن تجرى معه حوارا تستكشف به خبايا الغد لكنه بدا وكأنه لم يسمع ماقالته ، فلقد بادلها الابتسام وهو يقول :

« إذا احتجت إلى أى شىء فليس عليك إلا أن تطلبى ! »

ثم ودعها وانصرف !

وكانت حقيبتها الآن قد وصلت !

. . .   . . .   . . .   . . .

. . .   . . .   . . .   . . .

كانت الڤيللا التى نزلت فيها السيدة سمحون أنيقة بقدر يسمح للمقيم فيها أن يشعر بالارتياح دون حرج . . . بعد أن تناولت العشاء تقدمت منها عزيزة ـ وهذا هو اسم الفتاة المصرية الخمرية اللون الباسمة العينين التى لازمتها ، حتى فى العشاء ، كمضيفة لها ـ وسألتها إن كانت تحب أن تشاهد التليفزيون المصرى ، فسألتها هيلين عن البرامج التى سيعرضها ، فقالت الفتاة الخمرية اللون وهى تنظر فى ساعة يدها وكانت تشير إلى الحادية عشرة مساء : انه لم يبق فى البرامج سوى فيلم السهرة . . . سألتها عن موضوعه ، فقالت عزيزة إنه عن فتاة مصرية تجسست لحساب إسرائيل قبل حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وإن اسمه « الصعود إلى الهاوية » . . . وفى حقيقة الأمر فإن هيلين لم تكن على استعداد لمشاهدة فيلم مصرى ، ولكن العنوان استخفها ، فسألت عزيزة عن معناه ، فقالت هذه :



« لو أنك شاهدت الفيلم ، لادركت معناه ياسيدتى ! »

كانت عزيزة تتقن اللغة الألمانية اتقانا بدا لهيلين مدهشا ، لكن دهشتها زالت عندما عرفت أن عزيزة تعلمت فى المدرسة الألمانية منذ طفولتها المبكرة ، وكانت على استعداد لأن تترجم لها الحوار أيضا . . . وهكذا شاهدت هيلين فى تلك الليلة ذلك الفيلم وهى تتساءل : هل هى صدفة أن يعرض التليفزيون هذا الفيلم فى نفس ليلة وصولها ؟ ! . . . ولكنها لم تسأل عزيزة بالطبع ، وكان كل ماقالته بعد أن ترجمت لها الفتاة الرقيقة حوار المشهد الأخير :

« إنكم تحبون بلادكم إلى حد العذاب ! »

وردت عزيزة على الفور :

« لأننا تعذبنا فى حبها كثيرا ياسيدتى »

●●●

فى صباح اليوم التالى ، كانت السحب التى عبرت سماء القاهرة بالأمس قد انقشعت بعد أن أفرغت حمولتها طوال الليل مطرا ظل يهطل لساعات . . . فى الصباح كان الجو صحوا والسماء تبدو شديدة الزرقة ، والشمس ترسل أشعتها الدافئة لتغمر بها كل الدنيا . . . لذلك ، فلقد وافقت « فراو سمحون » على اقتراح عزيزة بأن تتناول أفطارها فى شرفة الڤيللا المطلة على تلك الحديقة الصغيرة ، التى بدت لها ـ برغم الشتاء وبرودة الجو ـ خضراء مورقة . . . كما ذكرتها بعض النباتات فيها بتلك التى كان ديڤيد مولعا برعايتها فى حديقة بيتهم . . . كان افطارها مكونا ـ كما طلبت ـ من البيض والجبن الأبيض والمربى ، ثم فنجان من القهوة الساخنة اللذيذة !

فى ذلـك الصبـاح كانت عزيزة من الـرقـة بحيث لم تثقـل عليها بوجـودهـا ، بل بدت لها مثـل طيف يظهـر إذا احتـاجت لشىء ثم يختفى . . . ولقد احست هيلين بأن ذهنها يبدو صافيا تماما . . . كانت قد قضت ليلة هادئة ، واستغرقت فى النوم كطفل رضيع . . . بدا لها كل شىء الآن ، وهى جالسـة فى الشرفـة ، واضحاً أشـد مايكون الـوضـوح ، ومـاهى إلا ساعـة أو ساعتان حتى تواجه الحقيقة التى عذبتها . . . تلك الحقيقة التى برغم وضوحها وسفورها ، لم تجب عن سؤال كان يلح عليها الحاحا متصلا : « من كان ديڤيد شارل سمحون ؟ ! »

« هل تريد فراو سمحون مزيدا من القهوة ؟ ! »

رفعت عينيها نحو عزيزة فبدا لها لونها الخمرى صافيا رائعا ، قالت فى ترحيب :

« أرجوك ! »

تابعت الفتـاة فى انصرافهـا ، وتابعت فتى جاء مهرولا كى يرفع أطبـاق الافـطار وراحت من جديد تتساءل : « من كان هذا الرجل ديڤيد شارل سمحـون ؟ ! » . . . من الرجل الذى تعامل أرملته فى مصر بمثل هذه الرقة وبمثل هذا الترحيب ؟ . . . وكيف . . . كيف عاشرته طوال مايقرب من سبع سنوات ، وانجبت منه طفلين ، دون أن تكـتشف حقيقتـه ؟ ! . . . أيه داهية كان ديڤيد ؟ ! . . . وأى ثعلب هذا الرجل ؟ ! . . . ثم ، أى نوع من الرجال كان ؟ !

وكان لابد ـ فى هذا الوقت من الصباح ، وفى مثل هذا الجو الدافىء المخدر ـ أن تترى الذكريات ! !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .



كان لقاؤها الأول بديڤيد شارل سمحون فى عشاء أقيم على شرفها فى تل أبيب ، التى كانت قد طارت اليها لتوقيع عقد صفقة من تلك الصفقات الروتينية التى تعقدها شركتها ومديروها مع العديد من دول العالم . . . وعندما قدموا لها ديڤيد فى ذلك المساء بدا لها لأول وهلة رجلا غريبا ، ذلك أنها شعرت ـ وكانت تراه لأول مرة فى حياتها ـ وهى تصـافحـه ، أنـه يقتحم حياتها بـنظرات عينـين شديدتى التعبير والنفاذ . . . ظنت فى البداية أنه واحد من رجال الأعمال الذين يخلطون بين الجد والهزل فنفرت منه ، غير أن دهشتها كانت عظيمة ، عندما بدأ معها حوارا حول موضوع الصفقة التى جاءت من أجلها . . . كان أول ماأدهشها فى الأمر ، أن ديڤيد كان على المام كاف ووافٍ بجميع التفاصيل التى كانت تظن أنها تندرج تحت بند السرية . . . قال لها فى تلك الليلة إنه يعمل فى السياحة حقا ، لكنه يفكر فى خوض تجربة العمل فى مجالات أخرى . . . وأن لاشىء ينقصه سوى دليل يقوده عبر الدروب الأولى لهذه المجالات !

وهى لاتدرى كيف عرضت عليه أن تساعده . . . هل كانت فى حاجة لأن تلتقى به مرة أخرى ، أم أنه هو الذى دفعها ، بذكائه ، إلى هذا العرض ؟ . . . وهى لاتدرى كيف ضرب لها موعدا فى اليوم التالى فوافقت ، .كيف التقيا وكيف بدأ الحـديث وكيف ناقشا الأمر وكيف انتهت المناقشة إلى اتفاق بانشاء شركة بينه وبينها ! !

وقد يكون هذا كله موضع تحليل يصل بها إلى انها كانت فى حاجة لهذه الشركـة ربما أكثر منه ، وأن الصفقه كانت مجزية تماما . . . قد يكـون الأمـر كذلك ، ولكن كيف كان ديڤيد شارل سمحون رجل

الأعمال الاسرائيلى ، الشهير والمرموق وموضع ثقة كل من التقت به فى تل أبيب ، كيف كان فى الأيام التالية لوجودها فى إسرائيل ؟ !

ولقد حاولت أن تجد الاجابة عن عشرات الاسئلة التى طرحتها على نفسها قبل الزواج منه وبعد أن تم الزواج أيضا ، لكنها لم تجد إجابة واحدة ، ذلك أن الأحداث كانت تندفع نحو تلك النتيجة التى وصلت اليها بقوة خفية . . . وهى لاتدرى سوى أن هذا الرجل النحيل له حديث ساحر يأخذ بالألباب ، وقدرة فذة على الاقناع دونما ضغط أو مباهاة . . . أكثر ماأدهشها فيه أنه لم يكن يساوم فى تفاصيل تافهة ، لكنها تبدو شديدة الأهمية لبنى جنسه . . . هى ليست من أعداء السامية ، وهى ترى أن العداء لجنس من البشر نوع منحط من التخلف فرضته ظروف بعينها . . . ولكن ثمة حقائق وصفات بالنسبة للأجناس تبدو كجزء من « جيناتها » وطبيعتها وتكوينها الدينى والخلقى والاجتماعى والوراثى . . . هى تعرف ـ دون تحزب أو تعصب ـ أن اليهودى إذا ماساوم إنسانا حول صفقة ، أو بيع أو شراء أو مشاركة ، سار فى طريق من يريد أن يأخذ كل شىء ، ولا يعطى شيئا على الاطلاق . . . وكما اشتهر الانجليز بالبرود اشتهر اليهود بالبخل . . . هؤلاء هم اليهود فى كل زمان ومكان وعصر .

لكن ديفيد لم يكن كذلك !

قضت الأيام التالية فى تل أبيب وهما يلتقيان كل يوم . . . أنهيا اتفاقهما ووقعا عقد الشركة بينهما وكانت تشعر أن شيئا ـ غير العمل ـ سوف يربطها بهذا الرجل إلى الأبد ! !

وانقضت أيامها فى إسرائيل وصحبها إلى المطار فى سيارته كى يودعها ... ورغم كثرة لقاءاتهما ، ورغم الصداقة التى ربطت بينهما ،



ورغم أنهما سهرا معا وتعشيا معا ورقصا معا وقاما برحلة إلى القدس وقضيا يوما استمتعا فيه بشمس الشرق الدافئة ، رغم كل هذا ، لم يكن هناك مايشير أو يوحى بشىء من عاطفة أو حب . . . لكنه فى المطار ، وقبل أن تمضى إلى الطائرة ، مال عليها ـ بغتة ـ وقبلها فى وجنتها . . . ولقد أُخذت بما فعل رغم أنه يبدو طبيعيا ولايعنى شيئا . . . لكن حرارة الفعل سرت إلى جسدها مثل تيار كهربى جعلها ترتجف ، رفعت إليه عينين تائهتين ، وكان هو يبتسم قائلا :

« صدقى أو لاتصدقى ياهيلين ، إنى سافتقدك كثيرا ! »

ولم ترد عليه ، أرخت عينيها وهرولت هاربة من نظراته ، كان المذهل فى الأمر أنها كانت تشعر ـ هى الأخرى ـ أنها سوف تفتقده كثيراً . . . شىء غريب كان يجذبها إلى هذا الرجل الطويل النحيل ، شىء بدا لها غامضا ومثيرا أشد ماتكون الاثارة ، فى حياة كانت تسير على وتيرة شديدة الاملال ! !

فى هامبورج ، كان عليها أن تجهز أوراق الشركة للتسجيل ـ هكذا اتفقا فى تل أبيب بعد توقيع العقود ـ وكان عليها أن تبرق له اذا ما انتهت تلك الاجراءات ، كى يحضر الى ألمانيا ، لتصبح بعده الشركة كيانا قائما بالفعل .

فى البداية ـ وبما لها من خبرة ـ قدَّرت أن الأمر قد يستغرق أسبوعا أو عشرة أيام ، ولكن كل شىء ـ وكانت هذه مصادفة غريبة ـ كان جاهز فى ثلاثة ايام . . . ولكنها لم تبرق إليه . . . كانت فى حاجة إلى بضعة أيام كى تتخلص من هذا الاحساس الغريب الذى راح يطاردها ليل نهار . . . استغرقت فى العمل ، ارتبطت بمواعيد للذهاب إلى المسرح ، والعشاء فى الخارج . . . كانت تقضى يومها كله فى عمل أو



متنقلة من مكان الى مكان ، غير أن الليل دائما ما كان يأتى ، وكانت لابد أن تدخل فراشها ، لتمارس أحلامها كصبية مراهقة ! !

وكان لابد أن تبرق إليه ، فأبرقت له فى صباح يوم ، ليركب هو الطائرة فى نفس اليوم ، ولتطالعها ابتسامته فى المساء وهو يهتف :

« انى فى حاجة لمن يدعونى إلى العشاء ! »

ودعته إلى العشاء ، ورقصت معه طوال الليل ، وقاومت بجهد شديد رغبتها فى الاستسلام لذراعيه ، وهى لم تكن تعرف لم كانت تقاوم ولم كانت ترفض . . . هل لأنه يهودى ، أم لأنه إسرائيلى الجنسية ، أم لأنه شرقى ، أم لأنها تعودت على الوحدة منذ توفى زوجها الأول ، أم أنها كانت خائفة من طوفان العواطف الذى كان يكتسح مقاومتها فى عنف كلما جلست إليه ؟ !

سألته ذات ليلة :

« ديڤيد . . . من أنت ؟ ! »

« ملاح يبحث عن شاطىء ! »

كان هذا فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٤ وعندما لمحت الدموع تترقرق فى عينيه فى تلك الليلة ، فقدت كل قدرة على المقاومة ، وعندما امتدت يده لتأخذ بيدها ، كان صوته يتسلل إلى قلبها فيغزوه بعنف :

« ولقد وجد شاطئه ياهيلين ! »

« ولمَ لايرسو ؟ ! »

« ينتظر الاذن بالدخول إلى الميناء ! »

وارتمى كل منهما فى أحضان الآخر ! !

عندما أوصلها بالسيارة إلى البيت فى تلك الليلة ، قال قبل أن تغادرها :

« هيلين ! »

كان الآن يبدو غريبا ، جادا وكأنه يحمل هموم الأرض فوق كتفيه ، سمعتْ صوت أنفاسه اللاهثة تتردد فى سكون العربة الدافئة

التفتت إليه وانتظرت ، بدا لها وكأنه يعانى من ألم مجهول . . . لكنه مالبث أن قال :

« لقد فكرت فى الزواج كثيرا طوال السنوات الماضية ! »

داعبته متحدية :

« ولِمَ لم تتزوج ؟ ! »

« لأنى - فى الحقيقة - لم أكن راغبا فى الزواج ! »

« والآن ! »

ضحك ضحكة بدت لها خجولا ، ثم جاءها صوته ممزقا بالانفعال وكأنه لايصدق مايشعر به :

« الكارثة أنى لاأحبك فقط ، لكنى أصبحت لاأستطيع العيش بدونك ! »

أيقنت أنه كان يتعذب ، وأن عذابه كان لسبب مجهول ، هتفت وهى تأخذ وجهه بين ذراعيها :

« ديفيد »

« أحبك »

« أعرف »

« وأريد أن اتزوجك ! »

«وأنا موافقة ! »

« وأن أنجب منك أطفالا ! »

أحاطت عنقه بذراعيها وهى تهتف به :



« أيها المجنون . . . أيها المجنون ! »

واكتشفت هيلين أن كليهما كان يبكى ، وان دموعهما كانت تختلط لتغسل وجهيهما فى سعادة لم تذق مثلها من قبل ، هتفت فى لحظة فقدت فيها نفسها :

« لنتزوج غدا ياديفيد ! »

كانت تخشى من التردد ، لكنها ، ولو عاشت مائة عام أخرى ، لن تنسى سحابة الحزن تلك التى مرت بملامحه فاجتاحتها كاعصار رهيب ، عادت تهتف به :

« ديفيد ! ! »

« هذا ماكنت أود الحديث معك فيه ! »

« ماذا تريد أن تقول ؟ ! »

« هل تستقيم الأمور لو أننا تزوجنا وظل كل منا يعيش فى وطن ! »

«أعرف أن الأمر لن يكون سهلا ولكن . . . . . . . . »

قاطعها :

« وهل من مصلحتك ومصلحة أعمالك أن تنقليها إلى إسرائيل ؟ ! »

« هذا مستحيل ياحبيبى ! »

« وهذا ماأعرفه يقينا ! »

نظرت إليه هيلين وقد تسلل القلق إليها ، عادت تهمس :

« ماذا تريد أن تقول بالله عليك ؟ ! »

« أريد أن أقول إنى سئمت كل شىء ! »

« لست أفهم ! »

« أريد أن أصفى أعمالى فى تل أبيب ، وأن أعيش إلى جوارك مابقى لى من عمر ! »

فى حرارة وجدت نفسها تهتف :

« كم أحبك أيها المجنون ! »

« سأشرع فى نقل أعمالى إلى ألمانيا ، حتى إذا استقر بنا الأمر تزوجنا ! »

وهكـذا مضت بهما ستـة أشهـر من اللهفـة والعـذاب والقلق والانتظار ، كانت تظن فى البداية أن الوقت قد يجلب التردد إلى صدرها ولكنها كانت تزداد قربا منه وحبا له ، كانا يتحدثان فى التليفون كل ليلة فتمضى بهما الدقائق لتكتمل ساعات وكأنهما صبيان يعيشان حياتهما لأول مرة ، ذات مساء صاح فيها :

«هيلين . . . لقد أفلست تماما ! »

انزعجت . هتفت :

« ماذا ؟ ! »

أطلق ضحكة جلجلت عبر الأثير عابرة القارات إلى حيث يركض قلبها بين ضلوعها :

« هل تعرفين كم دفعت فى فاتورة التليفون صباح اليوم ؟ ! »

فأطلقت هى الأخرى ضحكة مجلجلة ، لكنها ضحكت أكثر وهو يقول :

« هل نسيت أنى يهودى أيتها السيدة ؟ ! ! »

يالـرقتـه ومرحه وحنانه وسخريته اللاذعة من كل شىء حتى من نفسه ، يالروعة الشوق وحرارته وهو يغزو قلبا لم يعرف للشوق طعماً من قبل ، يالبطء الأيام وهى تزحف كالسلحلفاة لاتريد أن تخطو . . . دق



جرس التليفـون ذات ليلة وكان يتحدث من روما ، صاحت فيه أن يركب أول طائرة إلى هامبورج كى يراها وتراه ، اعتذر باعمال تشغله وكان فى عجلة من أمره وكان/سعيدا وكان مرحا . . . هى لاتنسى ، ولن تنسى ، صوته فى تلك الليلة ، كان يبدو وكأنه أمسك القمر بيده :

« هيلين . . . سوف نتزوج . . . سوف نتزوج قريبا ! »

ولكم ساءلت نفسها طويلا عن سر تلك الجملة . . . ألم يتفقا على الـزواج منذ شهور فما معنى ماقاله ؟ . . . ولكن احساسها بالسعادة صادر رغبتها فى إثارة جدل قد لاينتهى إلى شىء . . . أليس غريبا أن يملك رجـل تجاوز الاربعـين بعـدد لابـأس به من السنين ، وإمراة جاوزت الثلاثين بنفس العدد ، كل هذه الحرارة وكل هذا الحب وكل هذا الشوق وكل تلك الرغبة فى الحياة ؟ !

حتى كان يوم من أيام مارس ١٩٧٥ . كانت مستغرقة فى أعمالها فى مكتبها بالشركة عندما أخبروها أن الهر سمحون ينتظر فى الخارج . . . صاحت غير مصدقة :

« هر من ؟ ! »

« هر سمحون ياسيدتى ! »

قفزت من مكانها ، فقدت وقارها ، اندفعت وسط دهشة موظفيها تعبر الغرفة وتفتح الباب وتصيح فى اللحظة التى وقعت فيها عيناها عليه :

« أيها الثعلب ! »

فتح لها ذراعيه فارتمت بينهما غير عابئة بنظرات الموظفين وابتسامات

الموظفات ، ألغت كل المواعيد ، واعتذرت عن كل شىء ، دفعته إلى غرفة مكتبها ، أغلقت الباب وأجلسته أمامها وانحنت نحوه متسائلة واللهفة تأكلها أكلا :

« اجازة ؟ ! »

هز رأسه نفيا . . . . فسألته وقد غاضت الابتسامة من وجهها :

« مزيد من العمل ؟ ! »

مرة أخرى هز رأسه نفيا ، صاحت وهى تلقى بنفسها إلى جواره :

« ماذا إذن ؟ ! »

همس :

« زواج ! ! »

ولم تكن هناك على وجه هذه الأرض ، إمرأة أكثر سعادة من هيلين ريشتر ، التى كانت تدعى قبل زواجها الأول ، هيلين شيبربور ، والتى سيصبح اسمها بعد ساعات « هيلين سمحون ! »

●●●

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحا بقليل ، وكانت لاتزال فى جلستها تلك فى شرفة الفيللا المطلة على الحديقة ، ترشف من فنجان قهوتها الثانى على مهل ، عندما شاهدت السيارة السوداء الألمانية الصنع تقف بالباب .

تابعت « حسين شكرى » وهو يغادر السيارة فى نشاط ، ثم يدلف من باب الفيللا ملوحا فى مرح وكأنهما صديقان قديمان ، ثم وهو يقفز الدرجات المؤدية إلى الشرفة فى رشاقة من يمارس لعبة رياضة عنيفة . . . تقدم منها ملقيا عليها تحية الصباح ، ثم وقف قبالتها



متسائلا :

« هل أطمع فى تناول فنجان من القهوة معك ؟ ! »

هكذا كان مرح ديفيد ، رقيقا بسيطا خاليا من التكلف ، كانت على حق يوم صاحت فيه إنه ليس يهوديا وليس اسرائيليا ، فضحك وكأنها قالت نكتة . . . سألها حسين شكرى بعد أن وضعت عزيزة فنجان القهوة أمامه :

« كيف قضيت ليلتك ياسيدتى ؟ »

قال مبتسمة :

« هل أنت فى حاجة إلى الاشادة بالكرم المصرى ؟ ! »

« لعلك أخذت قسطا وافيا من الراحة ؟ ! »

فهمت ما الذى يعنيه فسألته :

« هل أستطيع أن أعرف شيئا عن برنامج يومى ؟ ! »

« ليست هناك سوى مقابلة واحدة ! »

« مع من ؟ ! »

«مع مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ! »

هاهى ذى تقترب من الحقيقة سافرة عارية بلا ظنون أو تخمين .

« متى ؟ ! »

« بعد نصف ساعة ! »

همت فى جلستها :

« ماذا ننتظر إذن ؟ ! »

أشار إلى فنجان القهوة هاتفا فى مرح :

« أن انتهى من قهوتى ! »

« هل هناك متسع من الوقت ؟ ! »

كانت تبدو كطفلة متعجلة . قال :

« بالطبع لا . . . ولكننا سنصل فى الموعد ! »

قال هذا وهو ينهض راشفا رشفة أخيرة من فنجان القهوة . . . وهكذا احتوتها السيارة السوداء مع رفيق رحلتها هذا ، وانطلقت بهما فى شوارع القاهرة ، وكانت المدينة ، تحت أشعة الشمس الواهنة ، تبدو مغسولة . . . تبدو كعروس خرجت من الحمام لتوها !

. . .   . . .   . . .   . . .

. . .   . . .   . . .   . . .

كانت السيارة التى ركبتها هيلين ، من النوع الذى يخفى زجاجها من فى داخلها ،لكى يتيح للراكب أن يرى كل شىء فى الخارج . . . ولاتدرى هيلين لم أشعرها هذا بسكينة تسللت إلى نفسها فاستسلمت مرة أخرى للذكريات ، ولم لا ؟ ! . . . ألم يولد ديفيد فى هذه المدينة كما قال لها ؟ ! . . . ستطلب إليهم زيارة البيت الذى عاش فيه ، ولسوف يلبون بالطبع . . . حرصهم عليها يشعرها بالامتنان . . . فى نهاية عام ١٩٧٦ أنجبت طفلها الأول « يوسف » ، كان ديفيد سعيدا سعادة تفوق حدود التصور ، لم تحلم هى بأن تنجب أصلا ، ولكن : كيف فعلت مافعلت وكيف أقدمت على ماأقدمت عليه ؟ . . . هذا مالم تفهمه حتى الآن . . . هل كانت رغبة ديفيد فى طفل آخر هى السبب أم أنها استعذبت أن تكون أما ؟ ! ! . . . أنجبت بعد عامين طفلها الثانى « سليمان » ، سبع سنوات هى منذ التقيا حتى فارقها تاركا لها طفليه . . . تركت له كل شىء فى أعمالها فتزايدت أرباحها وتزايدت أرباحه . . . أصيب بالمرض بغتة ودون توقع أو الآم أو مقدمات . . . كانت الآلام فى البداية خفيفة ، لكنها ، فى سرعة



مجنونة ، راحت تتصاعد وتتصاعد وتمزقه تمزيقا . . . اكتشفوا المرض الخبيث فى وقت متأخر ، وكان الأمل يخبو يوما بعد يوم لكنه ـ ديفيد ـ لم يفقد الأمل لحظة . . . ورغم آلامه وعذاباته لم تختف ابتسامته أبداً ، عالجه أمهر أطباء العالم ، لكن السرطان كان مثل غول ينهش بقية عمره بلا رحمة . . . دوامة بدأت ولم تنته حتى الآن . . . فى تلك الليلة كان واضحا أنه سيذهب ، كان واهنا ضعيفا ، كان يبدو وكأنه ملّ من المقاومة ، فقرر أن يترك ماتبقى من عمره للسرطان كى يقضى عليه بلا مقاومة . . . فناداها !

لبت نداءه وجلست إلى جواره وتركت له يدها كى يتشبث بها . . . كان شاحبا شحوبا مروعا .

« هيلين . . . استمعى إلىّ جيدا ! »

كانت تتمزق عذابا من أجله . . انهمر الدمع من عينيها بالرغم منها .

« ديفيد . . . هل آتيك بحاخام ؟ ! »

وابتسم ديفيد ، وهى أبدا ، ومهما مر بها من أحداث أو عمر ، لن تنسى تلك الابتسامة الواهنة على شفتيه الزرقاوين .

« ديفيد ! »

« ياحبيبتى . . . هذا ماكنت أود أن أقوله قبل أن أذهب ! »

« ماذا تريد أن تقول ؟ ! »

« إن من كان مثلى لايحتاج الى حاخام ، فلست فى حقيقة الأمر يهوديا ! »

ظنته يهذى ، ربتت على وجنته هامسة :

« ألا تريد أن تستريح قليلا ! »

« أنا لاأهذى ياهيلين ، وليس هناك وقت ! »

« ستعيش مائه عام أخرى فلا تقلق ! »

كانت تريد أن تمازحه ، لكنه قال فى حدة :

« لست يهوديا ولست إسرائيليا ! »

لم تنطق كلمة ، بدا لها الأمر فوق كل خيال ، كان واضحا أنه لايهذى حقا .

« اننى مصرى ، وأنا أيضا مسلم ! »

« ديڤيد ! »

« وليس اسمى ديڤيد ! »

قال هذا ثم راح يلهث . . . وبدت فى عينيه نظرة ملهوفة .

« اسألى . . . . اسألى عنى جهاز المخابرات المصرى . . . الـ . . . الحقيقة عندهم ! ! »

ازداد شحوب وجهه وزرقة شفتيه كما ازدادت لهفته . . . بدا وكأن آلاف الكلمات تتزاحم فوق شفتيه ، تشبث بيدها أكثر ، حاول الحديث ، حاول أن يقول شيئا ، حاول ، حاول ، لكنه لم يقل سوى :

« الولدين ! »

ثم صفت نظرته صفاء مدهشا ، وابتسم ، وشهق ، وسقط رأسه !!!

●●●

« فراو سمحون ! »

التفتت نحو الرجل الذى احترم صمتها فلزم الصمت طوال



الطريق ، انتزعت نفسها انتزاعا مما كانت فيه ، وكان هذا يشير إلى مبنى هائل بدا لها على يسار الطريق وهو يقول :

« وصلنا ! »

انتبهت كل حواسها ، وكانت السيارة تنثنى الآن إلى اليسار كى تعبر بوابة يقف عليها عدد من الحراس أدوا التحية لمن لايرونهم فى داخل السيارة . . . عبرت البوابة الخارجية ثم دارت نصف دورة فى الفناء ، لتصعد منحدرا إلى حيث الباب الرئيسى لمبنى جهاز المخابرات العامة المصرية . . . وكان هناك اثنان فى استقبالها . . . ولم يكونا سوى الشابين اللذين زاراها بالأمس فقط ، فى بيتها فى مدينة بريمن ، على بعد الآف الأميال !!

●●●

من العسير أن نعرف طبيعة الحوار الذى دار فى مكتب مدير جهاز المخابرات العامه المصرية فى ذلك اليوم ، ولايستطيع المرء أن يعرف ـ على وجه اليقين ـ ان كانت صعوبة الحصول على هذا الحوار مردها إلى المعلومات السرية التى تبودلت فى تلك الجلسة الحميمة التى ضمت مدير الجهاز ومجموعة من معاونيه لاتتجاوز الأشخاص الثلاثة ، مع السيدة هيلين سمحون ، أم أن فى الأمر شيئا آخر يصعب التكهن به . . . وعلى كل ، فثمة حقيقة لايمكن انكارها أو اخفاؤها ، وهى أن الجلسة كانت ودية للغاية ، ولقد لاحظت « فراو سمحون » أن واحدا من معاونى المدير ، بدا لها وجهه وكأنها التقت به من قبل . . . غير أن الحديث جرف الجميع ، فبعد أن قدم لها المدير تعازيه وتعازى زملائه ، وقال إنه يأسف لأن التعزية جاءت متأخرة ، فلم يكن ممكنا .

أن يبادر أحد بالاتصال بها قبل أن تتصل هى أولا حتى يجنبها كل حرج لو أنها لم تكن تعرف شيئا عن حياة المرحوم ديڤيد شارل سمحون ، ذلك أن هناك طريقا وحيدا وواحدا من الممكن لها أن تعرف الحقيقة عن طريقه ، هو ديڤيد نفسه ولاأحد سواه !

قال المدير هذا ثم صمت ، وترددت السيدة سمحون قليلا ، لكنها ـ فى اختصار شديد ـ قالت : إن الأمر كان مفاجئا لها ، خاصة أن ديڤيد باح لها بما باح به قبل أن يسلم الروح مباشرة . . . ولقد كانت خائفة ومرتبكة ولاتدرى كيف تتصرف . . . فلقد تزوجت رجلا إسرائيليا يهوديا ، ثم فوجئت به يقول بأنه مصرى مسلم ، وكان هذا قبل وفاته بثوان . . . فهل هذه هى الحقيقة ؟ !

« نعم ياسيدتى ، كانَ زوجك مصريا ، وكان أيضا مسلما ! »

اندفعت هيلين فجأة وكأنها تذكرت هذا الأمر على غير انتظار وفى غير وقت التذكر :

« لست أدرى كيف غاب هذا الأمر عن ذهنى طوال ذلك الوقت رغم أنى فكرت فيما حدث وما كان مئات المرات ، واستعدت ذكرياتى مع ديڤيد طوال تلك الأيام التى انقضت منذ وفاته وحتى صباح اليوم . . . . ان . . . ان الأمر يبدو لى غريبا بعض الشىء ! »

ساد الغرفة صمت غريب وترقب بدا فى عيون الرجال التى احاطتها بالود ، حتى قال المدير :

« ماهو هذا الشىء الغريب ؟ ! »

« كنت . . . كنت أدخل عليه أحيانا فأجده جالسا على الأرض ، ومتجها نحو الجنوب الشرقى ، دائما . . . دائما نحو الجنوب الشرقى . . . رباه . . . انى اتذكر الآن جيدا ولكنى وقتها لم أعر الأمر



اهتماما . . . كان يتجه نحو الجنوب الشرقى فى غرفة نومنا ، وكان يجلس على الأرض وهو يقرأ فى الـ . . . الـ . . . ماسم كتاب المسلمين المقدس ؟ ! »

« القرآن ! »

« نعم . . . كثيرا ما كان يقرأ القرآن . . . وعندما سألته ذات مرة ، وكنت أعرف أنه يتقن اللغة العربية ، ربما أكثر من العبرية والألمانية ، ابتسم وبدا وكأنه يخفى سراً ، وقال انه يقوم ببحث فى الأديان منذ سنوات ! »

وعاد الصمت يلف الجميع من جديد حتى عادت هى إلى الحديث :

« لقد صدقته . . . نعم صدقته فلم يكن ديڤيد يكذب علىّ أبدا ! »

كانت المرارة تتساقط من كلماتها وهى تتفوه بجملتها الأخيرة ، فقال أحد معاونيه على الفور وكأنه يوضح أمرا هاما : .

« سيدتى . . . لم يكن ديڤيد يملك أن يطلعك على سره ، فلم يكن ذلك السر ، بكل المعانى ، ملكا له ! ! »

تمتمت هيلين :

« الآن أدرك ذلك . . . أدركه عن يقين ! »

قال المدير :

« على كل الأحوال ، أحب أن أقول لك اننا على استعداد للاجابة من أى سؤال ، كما أننا على استعداد ، أيضا ، لتلبية أية رغبة ، سواء بالنسبة إليك أو للصغيرين ! »

هتفت هيلين فى محاولة لتوضيح الأمور :

«مهلا سيدى المدير ، لقد كان كل شىء كما قلت لك مفاجأة لى ، ولقد عشت أياما صعبة حقا . . . وبالطبع فان لدى عشرات الاسئلة التى أريد أن أطرحها . . . أما الرغبات ، فلست أعتقد أن لى رغبات معينة ، ولعلكم تعرفون - وأنتم لابد تعرفون - أن ديڤيد ترك لولديه ولى بضعة ملايين من الماركات والدولارات . . . ولكنه فى النهاية ذلك الاحساس بالمسئولية تجاه الصغيرين !! »

« هذا شىء نقدره تماما ! »

« لقد عوملت فى بلادكم معاملة كريمة حقا ، وهذا يربكنى أكثر ! »

« لاتنسى ياسيدتى أنك كنت زوجة لبطل من نوع فريد وفذ !! »

« بطل ؟ ! »

هتفت هيلين بالكلمة فى صوت مرتجف ، وبدا أن ارتباكها قد ازداد وإن كانت بشرتها قد تشربت بحمرة من ارتدت إليه الحياة ؛ قالت وقد استقام صوتها :

« هناك سؤال واحد ، اعتقد انه المفتاح بالنسبة لكل الاسئلة الأخرى ! »

« لك أن تسالى أى سؤال يعن لك ! »

« من كان زوجى ؟ ! »

عاد الصمت يلف الغرفة ، اعتدل المدير فى جلسته ، فاستطردت هيلين :

« لست أقصد اسمه فلقد كان له اسم مصرى بالطبع ، وهو نفسه قال لى قبل أن يذهب ان ديڤيد ليس اسمه ، ولكن الذى اقصده بالتحديد هو : من كان الرجل الذى أنجب يوسف وسليمان . . . إنه



والدهما ، ولسوف يسألان ذات يوم من أبوهما ، ولابد لى أن أجيب

كانت هيلين الآن تلهث انفعالا ، ولقد ترك لها المدير الفرصة كى تقول كل ماتريد ، ولقد عادت بالفعل إلى الحديث :

« وأحب إذا ماأجبت عن سؤالهما ألا أكذب ، أو على الأقل ، ألا أخطىء ! »

بدا أنها بجملتها تلك ، قد أفرغت كل مافى جعبتها ، لذلك فلقد اعتدل المدير قائلا :

« لايستطيع انسان على وجه هذه الأرض أن ينبئك عمن هو زوجك ، سوى الرجل الذى عاش معه ، وكان صديقا حميما له ، بل ربما كان أقرب الناس إليه على الاطلاق ! »

« من هذا الرجل ، وهل استطيع أن القاه ياسيدى ؟ ! »

أشار المدير إلى صاحب الوجه الذى أحست هيلين بأنها التقت به من قبل :

« إنه هنا . . . السيد عزيز الجبالى ! »

التفتت هيلين نحو عزيز بسرعة ، هتفت :

« سيدى . . . ألم نلتق من قبل ؟ ! »

كان عزيز - بشكل ما - يبدو أكثر حزنا وانفعالا بالموقف من الجميع ، ولقد بدا لها خجولا مهذبا ، ولقد تردد قليلا وكأنه ينتقى الكلمات ، ثم قال فى صوت خافت :

« حدث هذا مرة واحدة ياسيدتى ! »

أضاءت الذاكرة فجأة فقالت هيلين :

« نعم . . . يوم الجنازة ، لقد كنت هناك و . . . وعندما انتهت مراسم الدفن تلفت نحوك لكنك كنت قد اختفيت فجأة ، كما ظهرت

فجأة ! »

« لم يكن ممكنا ألا أودعه . . . لم يكن ممكنا ألا ألقى عليه نظرة أخيرة ! »

« ولكن لماذا لم . . . . . . . . . . »

بدأت السؤال مندفعة ثم توقفت ، فلقد أدركت الجواب فورا . . . تمتمت :

« لاعليك . . . إنى أدرك الآن . . . أستطيع أن أفهم ! »

ابتسم لها المدير فى ود وهو يقول :

« لعلك فى شوق لأن تعرفى الاجابة عن سؤالك ؟ ! »

« نعم . . ولعلى أخذت من وقتك أكثر مما ينبغى ! »

قالت هذا وهى تنهض فنهض الجميع ، صافحها المدير قائلا :

« لابد أنك تدركين أن هناك بعض الأسرار التى لايمكننا ـ مهما كانت الأحوال ـ أن نبوح لك بها ! »

« ثق ياسيدى انى لن اثقل عليه . . وداعا ! »

« بل إلى اللقاء ! »

● ● ●

كان المكان الذى جلسا فيه ـ هيلين سمحون وعزيز الجبالى ـ عبارة عن صالون صغير ، مؤثث بأثاث متواضع ، له نافذتان غريبتا التصميم تطلان على حديقة صغيرة تبدو مهجورة . . . ولقد لاحظت هيلين ، منذ اللحظات الأولى ، أن هذا الصديق يبذل جهدا حقيقيا ومضنيا كى يخفى عنها اعصارا رهيبا من الحزن كان يجتاحه . . . جلس كل منهما قبالة الآخر ، ووضع أمام كل منهما كوب من عصير الليمون وفنجان من القهوة . . . راحت تنظر اليه بامعان ، كان متوسط



الطول ، متناسق التقاطيع فى وسامة مهملة ، حاد النظرات ، ثابت الملامح ـ ان صح التعبير ـ فلقد كان وجهه قناعا غريبا لانسان يصعب أن تخترق ماوراء عينيه . . . ظلت صامته حتى قال مبتسما :

« حسن . . . من أين تريدين أن نبدأ ؟ ! »

« ماسم زوجى الحقيقى ؟ ! »

« رأفت الهجان ! »

صاحت :

« أليس هذا هو الاسم الذى . . . . . . . »

« نعم ، هو اسمك فى جواز السفر ! ! »

همت بالنطق ثم تراجعت . . . لكنها عادت تسأل :

« كيف التقيت به لأول مرة ؟ ! »

ضحك عزيز ضحكة مقتضبة ، بدا عليه الحرج ، تردد قليلا قبل أن يقول :

« عفوا سيدتى ، فأنا لم التق برأفت ولامرة واحدة ! »

نظرت إليه ذاهلة :

« لست أعتقد أنى فهمت الاجابة ! »

وكان هذا ماأحست به هيلين حقيقة ، لقد كانا يتحدثان باللغة الانجليزية . . . ولقد ظنت أن ثمة معنى لكلمة قالها عزيز قد فاتها فلقد يتحدث الانجليزية بطلاقة من تدرب على هذا طويلا ، ويبدو أن عزيز قد خمن مايدور فى ذهنها فلقد قال :

« انك لم تخطىء ياسيدتى فى فهم ماقصدته ، فأنا فعلا لم ألتق برأفت ولامرة واحدة ! »

« يبدو الأمر وكأنه مجموعة من الألغاز ! »

« وإنه لكذلك فعلا ! »

مالت نحوه كما يفعل الشرقيون إذا ماكان الحديث هاما ، وهى تقول فى انتباه بالغ .

« إذن تفضل لى بحق السماء ... من ديفيد شارل سمسون ، أو ... أو رأفت الهجان ؟! »

صمت عزيز قليلا ، استأذنها فى التدخين فأشعلت له سيجارة ، وسرعان ماتصاعدت سحب الدخان فى حو الغرفة ، وبدأ عزيز الجبالى يحكى !



# الفصل الرابع

## القناص يسعى !!

لم يكن السؤال الذى طرحه عزيز الجبالى على السيدة فيلين سمسون من قبيل المجاملة وإن كان الأمر يبدو كذلك ... فهو [illegible] سألها : من أين تريدين أن تبدأ ؟ ... كان يريد ـ فى حقيقة الأمر ـ أن يعيد التفكير بصوت عال ، فهو ـ منذ اللحظة التى تقرر فيها دعوة السيدة سمسون إلى القاهرة ـ كان يعلم أنها سوف تأتى مادامت قد عرفت حقيقة زوجها ، ذلك أنه من المستحيل أن تكون فيلين قد عرفت من « ديفيد » أو « رأفت » سوى شىء واحد ، هو أنه كان على علاقة بجهاز المخابرات المصرى ، فهذا ماكانا ـ عزيز ورأفت ـ قد اتفقا عليه بعد حوار قصير عن الظروف والأعمار التى هى بيد الله أولا وأخيراً ، ثم عن الولدين إذا ماحدث له شىء ... هذا ماكانا قد اتفقا عليه : ألا يبوح رأفت بشىء لزوجته مهما كانت الظروف إلا بهذه المعلومة فقط ، ثم يترك لها الباقى بعد ذلك ، كى تختار بنفسها الطريق !

وهـو . . . هو يعرف رأفت جيدا ، يعرفه ويعرف مدى التزامه الحديدى بأمن بلاده . . . ثم ، ثم هو كان يعرف ـ أيضا ـ من تكون « فراوسمحون » . . . عرفها منذ أن أعلن رأفت ذات لقاء فى روما أنه ـ أخيراً وبعد كل هذا العمر ـ قد وقع فى الحب . . . كان هذا منذ سبع سنوات ، قال رأفت إنه يريد الزواج من سيدة الأعمال الالمانية « هيلين ريشتر » . . . وكان لابد أن يعرف عزيز كل شىء عن هذه السيدة منذ أن ولدت فى بلدة « خام » بالجنوب الشرقى لألمانيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، وحتى تلك اللحظة التى تجلس فيها أمامه فى احدى غرف الاستقبال المتواضعة الاثاث فى جهاز المخابرات العامة المصرية . . . كان لابـد أن يعـرف « هو » رغم المعلومـات الـدقيقة والوافية والصادقة تماماً التى قدمها رأفت عن المرأة التى اختار فى النهاية أن يربط حياته بحياتها ، وأن يعطيها اسمه المزيف ، وأن ينجب منها أطفـالاً . . . كان لابـد لعـزيز الجبالى أن يعرف،لالشىء ، الا لأن « رأفت الهجـان » لم يكن ـ بالنسبـة لبلاده ـ مواطنا عادياً ، بل كان « سوبر مواطن » إن صح التعبير ، أو « مواطنا فوق العادة » كما تعود أن يطلق عليه بينه وبين نفسه !

كان عزيز الجبـالى اذن يعرف أنها سوف تأتى وسوف تسأل . . . وهذا حقها ، ثم هو كان أيضا يعلم أنه سوف يحكى مايجب عليه أن يحكيه دون زيادة ، ومـايجب أن يحكيه للسيدة سمحـون هو ـ بايجاز شديد ـ قصة بطل قدم لأمته كل عمره فى ذكاء وحرص من يعرف ويقدر المسئولية الجسيمة التى القيت فوق عاتقه ، وأنه صنع ـ بالمعنى العلمى المطلق ، ودون أدنى قدر من المبالغة ـ واحدة من أعظم وأكمل شبكات التجسس فى التاريخ الانسانى كله لصالح شعبه المصرى ، وأمته



العربية !

ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لعزيز ، كانت المشكلة التى يخشى منها بعض الشىء ، تكمن فى تدفق الـذكـريات وهو يحكى ، تكمن فى ضرورة انفصالة عن ذاته . . . ذلك أن عزيز الجبالى اكتشف ـ منذ أن علم بوفاة رأفت الهجان ـ أن حياة هذا الانسان الذى لم يلتق به مرة واحدة وهو حى ، محفورة فى حياته هو شخصيا ، فعلى مدى عشرين عاماً كاملة ، حدث فى حياتـه ـ وهو على اتصال متوتر ودائم برأفت الهجان ـ كل مايمكن أن يحدث فى حياة انسان . . . فأين المفر ؟ ! . . . اين المفر ؟!!

لكننـا نسـطيع القـول ، دون تجاوز ، ان هذه مشكلة كان عزيز يستطيع تجاوزها بشكل أو بآخر مهما كان تأثير علاقته برأفت عميقاً فى وجدانه ، ذلك أنه بالقطع قد تدرب طوال ربع قرن من الزمان ، هى عمره كضابط مخابرات ، على أن يتحدث فى شىء وصدره يحوى شيئا آخـر . . . كان ـ مثـلا ـ يلتقى بخـائن يملك الأدلـة الـدامغـة على خيانته ، فيعامله معاملة المواطن الشريف والمحترم لأن الوقت لم يحن بعد لكشف خيانته . . . وبوضوح ، تعود عزيز الجبالى أن تكون حياته حياتـين ، وعقله عقلين ، واسمـه اسمـين ، ووجـدانـه مقسـما الى قسمين . . . قسم لا يراه أحد ، وقسم للناس ، وربما معهم أهل بيته !!!

وحتى هذا كان مقدوراً عليه . . . لكن الذى أضناه حقاً ، مشكلة أخـرى بدت له بالفعل عويصة . . . وكانت هذه المشكلة تكمن فى نفس السؤال الذى وجهه الى هيلين سمحون فى جلستها تلك باحدى غرف الاستقبـال المتـواضعـة الاثـاث بمبنى المخابـرات العـامة

المصرية . . . كانت هذه المشكلة العويصة هى : من أين يبدأ ؟ ! !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

ولابد لنا من الاعتراف بأن عزيز الجبالى كان على حق ، ذلك أن الصعوبة فى اختيار بداية لحديثه ، أنه لم تكن هناك بداية واحدة ، بل كانت هناك بدايات متعددة لهذه القصة الغريبة والمركبة . . . وهى فوق هذا - بدايات متداخلة ، تقود كل منها الى الأخرى بالضرورة !

وعلى سبيل المثال ، فلقد تساءل عزيز الجبالى : هل يبدأ من تلك الليلة الشديدة الحرارة من ليالى شهر يوليو عام ١٩٥٨ ؟! . . . عندما التقى « هو » لأول مرة مع « رأفت على سليمان الهجان » ، أو ، « ديفيد شارل سمحون » ، فى مجموعة أوراق يضمها ملف سُلم له مع عدد آخر من الملفات كان عليه أن يدرسها ويمحصها ويقتلها بحثا ! . . . وكيف كان فى ذلك اليوم قد واصل العمل منذ الصباح فنسى نفسه حتى داهمه الليل ، وراح ينصب الشراك لجيوش الناموس التى راحت تهاجمه من الحقول المحيطة بهذا المبنى المهجور الذى كانت تشغله مجموعة صغيرة تعد على أصابع اليدين من الضباط الشبان الذين كانوا يشكلون - فى تلك الأيام - واحدة من الخلايا الأولى لجهاز المخابرات المصرى الوليد ؟! . . . وكيف خلع القميص مع اشتداد الحر ، وظل بالفانلة والسروال يتصبب عرقاً لأن المبنى الذى كان يعمل فيه لم يكن يعرف رفاهية أجهزة التكييف أو حتى المراوح الكهربائية . . . ثم كيف - وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ - كان يستعد للانصراف عند منتصف الليل ، عندما طالعته صورة رأفت فجأة ، تلك الصورة



الغريبة ذات الابتسامة الغامضة والنظرات الداعبة والنائية وكأنها استغاثة من عالم مجهول ؟ ! . . . كيف أنها كانت مجرد نظرة أراد لها أن تكون عابرة ، فاذا به يعود الى مقعده ، يحملق فى الصورة ، ويقلب الأوراق ، ويقرأ السطور . . . ثم يقع فى الحيرة حتى طلع عليه النهار ، وقد نسى تماماً ايذاء الناموس كما نسى نفسه ؟ !

هل يبدأ من هنا ، أم يبدأ من حيث كانت البداية الأولى لعلاقة رأفت الهجان بأول ضابط مخابرات يراه فى حياته ؟ ! . . . منذ بدايته مع « محسن ممتاز » - ابن العمدة المتجهم الملامح ، الجاد التصرفات ، الشديد الجلد والقدرة على مواصلة العمل لأيام متوالية دون نوم أو راحة - والذى التقى برأفت لأول مرة عندما كان محجوزاً فى سجن الاستئناف بعد أن قبض عليه فى « ليبيا » على أنه يهودى هارب من مصر اسمه « ليڤى كوهين » !

كان هذا فى عام ١٩٥٤ ؛ وكان وكيل النيابة وضباط الشرطة والمباحث قد كونوا شبه مؤتمر لبحث حالة هذا الشاب المتوسط الطول الغريب الملامح والتصرفات الشديد الذكاء لدرجة أوقعتهم جميعا فى الحيرة والعجز عن معرفة شخصيته التى تقول بعض الأوراق - وكانت بين أيديهم - إنه يهودى ، وبعضها يؤكد أنه مسيحى ، وأوراق دامغة بأنه مسلم . . . بل ان أوراقا بعينها مختومة وموقعة كانت تقول انه بريطانى الجنسية ، وأخرى لاتدع مجالا لشك بأنه أمريكى ، وثالثة لاسبيل إلى مناقشتها تؤكد أنه مصرى لحماً ودماً ! ! !

هل يبدأ عزيز الجبالى قصته منذ تلك الليلة . . . أم يبدأ من حيث كانت بداية المأساة فى حياة « رأفت على سليمان الهجان » الفتى

القاهرى الذى توفى والده وهو طفل صغير ـ وكما كان يحدث فى الأفلام المصرية فى تلك الأيام ـ فوجد نفسه يواجه قسوة اليتم التى دفعته الى الهرب من البيت ، ثم مابعد الهرب من تشرد وسوء حظ قدرى راح يدفعه فى اصرار يدعو الى الدهشة ، نحو طريق أدخله ـ على مدى سنوات وراء سنوات ـ أكاديمية كونية كانت وكأنها تدربه وتعلمه فى عنف وقسوة ، على القيام بدور مجهول قدر له أن يلعبه فيها بعد باقتدار الاستاذ العظيم ؟ !

هل تبدو هذه البداية مناسبة ، أم أن البداية الحقيقية كانت فى تلك الليلة الثانية والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، عندما تحركت مجموعة من الضباط الشبان فى الجيش المصرى عرفت باسم « الضباط الأحرار » ، وقاموا بثورة على نظام حكم فاسد ، ثم اكتشفوا أنهم أمام معضلة شديدة التعقيد ، وكارثة بلا حدود ، فلم تكن هناك « دولة » بالمعنى العصرى والحديث لهذه الكلمة ، بل كيان متهاو ينخر السوس فى قوائمه ، فبدت لهم بلادهم خرابا كان عليهم أن يعمروه ، ثم اكتشفوا أن ذلك الخراب انما يجعل منهم ـ ومن الشعب المصرى كله ـ عزلاً من أى سلاح يواجهون به تلك الصيحة التى انتشرت فى صحافة مصر قبل قيامهم بثورتهم ، والتى كانت عنوانا على ماوصلت اليه البلاد من حال ، صيحة كانت تطالب بالقضاء على « الفقر والجهل والمرض » . . . ثم ، اذا بهم مع الأيام يكتشفون أنهم ليسوا عزلاً فقط أمام فقر وجهل ومرض وتخلف و . . . و . . . وكل هؤلاء الاعداء فى الداخل ، بل انهم عزل بالفعل أمام أعداء متربصين مسلحين يتحينون الفرصة كى ينقضوا ويدمروا ويُضعفوا ويحتلوا الأرض ؟ !



وليت الأمر اقتصر على هذا ، كانت المصيبة أنهم كانوا عزلا حتى من المعرفة المطلوبة لاعادة البناء ، بل عزلا من « وسائل » هذه المعرفة أيضا !! . . . اكتشف هؤلاء الضباط الشبان قليلو الخبرة الممتلئون حماسة وحباً لمصر . . . أن عليهم أن يعيدوا البناء وسط ركام بلا نهاية من الخرائب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لاقامة دولة عصرية ، وأن عليهم أن يبدءوا من الصفر ، بل من تحت الصفر !!!

كان هذا هو الموقف أمام عزيز الجبالى !

وكان موقفاً محيراً . . . فلقد كانت كل بداية من هذه البدايات ، هى بداية حقيقية للقصة الغريبة التى كان عليه أن يبدأها . . . وكانت كل بداية مرتبطة ارتباطاً موضوعياً وعضوياً بهذه القصة التى عاشها ، منذ أن التقى برأفت على سليمان الهجان ، مجرد صورة وبضعة أسطر ، ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى عام ١٩٥٨ ، وحتى هذا اليوم من أيام يناير عام ١٩٨٠ ، الذى يجلس فيه مع سيدة الأعمال الألمانية « فراو ديفيد شارل سمحون » أو . . . أو حرم المرحوم رأفت الهجان !

●●●

« هر جبالى »

رفع عزيز عينيه نحو هيلين ، وكانت هى تنظر اليه بدهشة ، وكانت أيضا مبتسمة ، أدرك على الفور أنه سرح مع تلك الخطوط المتشعبة والمتداخلة فيما هو مقدم عليه . . . غير أن ابتسامتها اتسعت وهى تميل نحوه متسائلة :

« إلى هذا الحد كنت مرتبطا به ؟ ! »

ولا يدرى عزيز الجبالى لم خطر بباله فى تلك اللحظة «محسن ممتاز» ،

لم فرض وجه محسن السريفى المتجهم نفسه على مخيلته ؟ . .

وعلى أية حال ، فان عزيز ـ شأنه شأن كل ضباط المخابرات المدربين لا يترك محدثه يقوده بأسئلته الى حيث يريد ، بل يبادر هو ، بإجاباته الى قيادة محدثه نحو مبتغاه . . . فاجاب على سؤالها وهو يبتسم ابتسامة واسعة ، ربما كانت الابتسامة الأولى التى تراها هيلين على وجهه ، وقال :

« يقولون أنك كنت صاعقة الجمال وأنت صبية فى السادسة عشرة من عمرك فراوسمحون ؟ ! »

ابتسمت هيلين للمجاملة ، كما أنها ، فى نفس الوقت ، فهمت معنى جملته الخبيثة ، أعجبها الأسلوب فبادرت برد الكرة اليه فى سرعة وذكاء :

« أشكرك هو جبالى . . . ولكن ، هل لهذا الاطراء علاقة بالسؤال الذى وجهته اليك ؟ ! »

ولم تكن هيلين تدرى أن هذا ، بالضبط ، ماكان يريده عزيز ، فلقد قال :

«نعم ياسيدتى . . . فلقد كنت فى السادسة عشرة من عمرك عندما بدأت احداث تلك القصة ! »

●●●



فى بقعة نائية فى أطراف القاهرة ، حيث لاعمران ولا « صريخ ابن يومين » كما يقول المثل الشعبى المصرى . . . كان يقوم بناء غريب الشكل مهجور من ساكنيه . . . كان هذا البناء يتوسط حقلاً من الحقول الممتدة فى تلك البقعة الى مدى البصر ، يحيط به سور غير مرتفع مهدم فى بعض أجزائه ، يدل على أن البناء قد هُجر منذ زمن ليس بالطويل . . . ولم يكن السور فقط هو الدليل على أن البناء مهجور ، ولكن تساقُط الطلاء الأبيض من واجهة البناء المكون من دورين ، والاهمال الشديد البادى على حديقته المتوسطة الاتساع ، وذلك الصدأ الذى علا طلمبة المياه القائمة بجوار الجدران الخلفية ، وعلو الحشائش من حولها نتيجة لتسرب المياه . . . و . . . وحتى ذلك الخفير البطئ الخطو فى الحديقة وخلف البوابة بجلبابه الريفى و« اللبده » الصوفية فوق رأسه فى « أغسطس » . . . كل هذا كان دليلا على أن سكان المبنى قد هجروه منذ زمن !

ولقد كان هذا حقيقيا تماماً . . . فذات يوم من الأيام الأولى لعام ١٩٤٩ أقيم هذا البناء فى ذلك المكان النائى كى يكون مستشفى للأمراض النفسية . . . كان صاحب المشروع طبيبا شابا أنفق من عمره عشر سنوات فى احدى جامعات سويسرا كى يدرس فيها الطب النفسى . وكان هذا النوع من الطب فى تلك الأيام حديثاً وجديدا فى نفس الوقت . وكان ذلك الطبيب ، كما تقول أوراق الجامعة التى درس فيها ، نابغة . . . كما انه كان ابنا لأب من الأثرياء ، يمتلك ألوف الأفدنة ، وينتمى لأحد الأحزاب القائمة ، ويحمل رتبة الباشوية . . . أما أمه ، فلقد كانت سليلة واحدة من أسر مصر العريقة ، وفوق هذا

فهى سيدة مجتمع بارزة ، كان لها نشاط مرموق فى بعض المشروعات الاجتماعية الهامة ، مثل مشروع « الحفاء » الذى اشتهر فى تلك الأيام وامتلأت صفحات الصحف والمجلات بالحديث عنه ، وكان الغرض منه االتصدق على أفراد الشعب بأحذية وصنادل تقيهم السير فى الشوارع حفاة !!

ولذلك ، فعندما وقع اختيار الفتى على تلك البقعة النائية فى أطراف القاهرة ، لم يكن صعبا عليه أن يشترى قطعة الأرض التى تجاور طريقاً جانبياً كان من السهل الوصول اليه عبر احدى ضواحى القاهرة ، كما كان من السهل أيضاً أن يرصف هذا الطريق الجانبى الذى ظل غير ممهد لسنوات طويلة ، وفوق هذا ، استطاع الفتى أن يمهد الطريق الواصل - عبر الحقول - حتى باب المستشفى التى أحيطت بحديقة غناء بديعة التصميم ، وسرعان ما امتدت أسلاك الكهرباء ليصل التيار الكهربائى الى المستشفى الذى جهز بأحدث الأجهزة الطبية ، وبمجموعة منتقاة من الممرضات السويسريات والفرنسيات اللائى ، باشرافهن على مجموعة أخرى من الممرضات والخدم المصريين ، حولن المستشفى الى قطعة من أوربا .

كانت المشكلة الوحيدة التى واجهت الطبيب الشاب هى مشكلة المياه ... فرغم أن مجموعة العمال والمهندسين الذين أشرفوا على بناء المستشفى كانوا قد أقاموا « مضخة » للمياه الجوفية كانت تمده بكل مايحتاج اليه من مياه ، الا أن مشروع مد أنابيب المياه الى المستشفى عبر الضاحية القريبة توقف فجأة عندما اقيلت الوزارة ، وعينت بدلا منها وزارة أخرى ... فبدأت أوراق المشروع تتعثر !!



لكن هذا لم يفت فى عضد الشاب الذى كان متحمسا حماساً شديداً ، فلقد افتتح مستشفاه لعلاج المرضى النفسيين والمصابين بالاكتئاب وانفصام الشخصية و .... و .... وما إلى ذلك ... واستقبل المستشفى بالفعل مجموعة لا بأس بها من المرضى الذين كانوا من أبناء الموسرين والاغنياء والقادرين على دفع تكاليف العلاج الباهظة !

فى الشهور الأولى بدا الأمر وكأن كل شىء على مايرام ، وأن المستشفى يلقى رواجاً شديداً ، خاصة بعد أن اشتهر أمر الطبيب الشاب وسط فتيات العائلات الارستقراطية ، وبعد أن أصبح المرض النفسى « موضة » بين فتيات الأسر وسيداتها ... ولكن الذى حدث ، أنه فى منتصف عام ١٩٥١ ، توقف المستشفى عن استقبال مرضاه ، واختفى الطبيب الشاب الذى قيل فى أول الأمر إنه سافر الى أوربا لاستحضار بعض الأجهزة الحديثة اللازمة لمستشفاه ، والاطلاع على آخر تطورات العلم ... ثم ، وعندما طال غياب الطبيب ، وبدا أن المستشفى لم يعد يجد رعاية من أسرته ، وأن كل الممرضات السويسريات والفرنسيات قد عدن الى بلادهن ، أو التحق بعضهن بالعمل فى مستشفيات أخرى ، بينما سرّحت الممرضات المصريات والخدم ... قيل وقتها الكثير عن أسباب اغلاق المستشفى ، منها أسباب عاطفية ، ومنها أسباب تمس شخصيات لها أهميتها فى المجتمع ... ثم قيل ان الطبيب الشاب نفسه قد وقع فريسة اكتئاب نفسى استلزم علاجه فى الخارج ... ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ونسى الناس الأمر مع طوفان الأحداث التى جرفت مصر من

ولاأحد يدرى ، بالضبط ، متى بدأت الحياة تدب مرة أخرى فى هذا المبنى الذى ظل مهجوراً منذ منتصف عام ١٩٥١ ، ولكن الثابت أنه فى منتصف عام ١٩٥٣ ، قيل إن أحدهم تقدم لشراء المستشفى ومايحيط به من أرض من والد الطبيب الذى كان قد اعتكف عن الحياة العامة بعد أن ورد اسمه فى بعض الفضائح التى ارتكبها رجال ذلك العهد وكشفت عنها الثورة بعد قيامها . لكن الخفير الذى كان معينا لحراسة المستشفى ظل فى مكانه ووظيفته . . . وبعد بضعة أشهر ، وكان الناس قد نسوا الأمر تماماً وسط الأحداث المتلاحقة التى ازدحمت بها سماء مصر ، علقت على المبنى لافتة غريبةمكتوب عليها : « ادارة البحوث والانشاء » . . . كان الاسم غريباً فى ذلك الوقت ، ولم يفهم أحد أية بحوث هذه ، وأى انشاء ، ولم يعرف أحد أية وزارة تتبعها هذه الادارة التى راح موظفوها يتوافدون على المبنى كل يوم فى سيارة اتوبيس قديمة ومتهالكة ، ولاتحمل اسم وزارة أو مصلحة . . . كان المالك الجديد قد طلب إلى الخفير أن يظل فى الحراسة كما كان ، وإن كان قد استأجر معه خفيراً آخر راحا معاً يتناوبان الحراسة على المبنى ، وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين . . . وعادت الحياة إلى المبنى المهجور ، وإن ظل يوحى من الخارج ـ ولكل من يمر عليه من بعيد ـ أنه ادارة من ادارات الحكومة القليلة الأهمية !

لكن الغريب فى الأمر ، أن « ادارة البحوث والانشاء » هذه لم تكن تتعامل مع الجمهور ، وكان عدد موظفيها محدودا للغاية ، وكانوا جميعا ـ



وبلا استثناء ـ من الشبان الشديدى الالتزام بمواعيد العمل ، فما أن تدق الساعة الثامنة صباحاً ، حتى يكون هذا الاتوبيس القديم يتمايل على الطريق وهو يحمل الموظفين . وما ان يفرغ حمولته حتى ينصرف ولايعود قبل الثانية ظهراً . . . ثم . . .

ثم لم يكن هناك من يهتم بمثل هذه الادارة المهملة من ادارات الحكومة كى يكتشف مثلا ، أن مجموعة المكاتب والدواليب الحكومية التى نقلت اليها ، كانت تحوى فيما تحويه من أثاث . . . عددا لابأس به من الخزائن الحديدية الحديثة ، والمزودة بأقفال ذات أرقام . . . وأن بعض هؤلاء الموظفين كانوا يسهرون فى المبنى إلى ساعة متأخرة من الليل منكبين على عملهم فى حماسة غير معهودة فى موظفى الحكومة . . . ولكن ـ وهذا هو الأهم ـ لم يلحظ أحد أبدا أن واحداً من هؤلاء الشبان كان لابد أن يبيت فى المبنى كل ليلة فى ذلك الجناح البعيد من أجنحة المستشفى السابق !!!

لم ينتبه أحد الى كل هذا بطبيعة الحال ، ففى تلك الأيام كانت العاصمة المصرية تغلى بالأحداث السياسية والخلافات العنيفة ، وتضطرم فيها الصراعات التى قدر لها أن تحسم مستقبل الدولة الى سنوات طويلة قادمة !

لم ينتبه أحد الى مايحدث فى تلك البقعة النائية ، وكان هذا هو المطلوب تماما . . . فلقد كان هذا المبنى الذى ظل مهجوراً لايزيد على العامين ، هو واحد من بضعة أماكن وقع عليها الاختيار ـ بعد دراسات ومناقشات ـ ليحتضن ـ فى أماكن متفرقة ، لتكون مقار لبعض أقسام جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد . . . وكانت مجموعة الموظفين الذين

يبدو وكأنهم يعيشون يومهم وليلهم فى هذا المكان النائى ، ليسوا سوى مجموعة من الرواد الأول الذين وضعوا البذرة الأولى لهذا الجهاز الذى قدر له أن يلعب فى الحياة المصرية ، وفى حياة الشرق الأوسط ، بل والعالم أجمع . . . دوراً هاما ، قدر له ـ فيما عدا النادر منه ـ أن يظل طى الكتمان !!

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

فى نهاية الثلث الأول من عام ١٩٥٤ ، كان ثمة ضابطان من « موظفى » ذلك المبنى الذى رفعت عليه لافتة « ادارة البحوث والانشاء » ، يجلسان فى مكتب أحدهما وقد استغرقا فى مناقشة طالت بهما منذ مابعد الظهر حتى شارفت الساعة على الثامنة مساء . . . واذا كان « حسن صقر » و « محسن ممتاز » اثنين من هذا الفريق الذى وقع عليه الاختيار ، فى بداية الثورة ، كى يتولى انشاء أول جهاز للمخابرات العامة المصرية . . . فانهما فى ذلك الوقت من اليوم ، بعد غروب الشمس بساعة أو أقل قليلا ، كانا يبدوان مجهدين أشد مايكون الاجهاد . . . ذلك أنهما عندما بدآ خطواتهما الأولى تلك ، كانا يكتشفان فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، حاجتهما الماسة الى « المعرفة » . . . كان هذا الفريق الذى عهد اليه بتلك المهمة العسيرة قد أقسم ـ قبل أن يبدأ العمل ـ يمين الولاء لمصر ، لا لشخص ، ولا لنظام ، ولا لمجموعة ، ولا لحزب . . . وربما كان هذا هو السبب فى أنهما ـ برغم الأزمة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الأيام ـ أعطيا ظهريهما لكل تلك الأحداث الملتهبة التى كانت تغلى بها العاصمة المصرية فى ذلك الحين ، خاصة فى أعقاب أزمة مارس الشهيرة . . .



كان لكل منهما رأى فيما كان يحدث بالقطع ، لكنهما كانا كلما توغلا فى الدراسة والبحث أو الاجتهاد أو استغرقا فى التفكير ، يكتشفان مدى الهوة الرهيبة التى كانت مصر تقف على حافتها . . . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وللضرورات التى فرضتها تلك الحرب ، ثم فى السنوات التى أعقبتها . . . كان علم المخابرات قد تقدم تقدماً مذهلا ، وكان قد أصبح علماً له مدارسه وأصوله وقواعده ، وفى الوقت الذى كانت مصر تفتقر فيه إلى مصادر معلومات تبدو وكأنها شرايين حياة وسط مجتمع دولى مفترس ، ومحتل يدنس أرض الوطن بأحذية جنوده ، كانت اسرائيل ـ العدو القائم على الحدود فى تربص ـ تملك من وسائل المعرفة مايتفوق على ماتملكه بعض الأجهزة القائمة فى العالم بالفعل . . . ولقد كان لهذا ظروفه وكانت له أسبابه وملابساته . . .

ولكن ، حتى هؤلاء الذين طلب المصريون إليهم سرا وعلى استحياء أن يمدوا لهم يد العون فى هذا المجال ، ابتسموا وهم يقدمون قشوراً عفا عليها الزمان ، وأكل عليها الدهر وشرب . . . لكن هذا لم يفت فى عضد الرجال ، فلقد أيقنوا منذ البدايات الأولى أن واحدة من دول العالم ـ مهما تغنت بصداقتها لنا وحرصها علينا ـ لن تقدم لهم أى عون حقيقى وفعال فى هذا المجال . . . وإذا قدمت ، فهى لن تقدم سوى تلك الوسائل والبدايات التى أصبحت بلا قيمة تذكر . . . وكان هذا فى حد ذاته ـ بالنسبة لهؤلاء الشباب ـ مرضياً تماماً ، وإذا كان هؤلاء قد بدءوا بتلك القشور منذ عشرات السنين ، فانهم يستطيعون أن يبدءوا أيضا من هنا ، بتلك القشور التافهة ، على أن يسابقوا الزمن ، ويختصروه بالتجربة والدراسة والتعليم والاحتكاك الذى أصبح مفروضاً

علينا كأمة وكدولة وكثورة معا . . .

ثم . . .

ثم كانت هناك دائما وسائل للحصول على اللب أو بعض مايحيط

فيها تحت القشور . . .

كانت هناك وسائل ـ قد تكون خطيرة فى بعض الأحيان ـ لكن

الرجال كانوا فى أشد الحاجة الى العلم عطاشا للمعرفة !

ثم كانت هناك التجربة التى أصبحت ـ بمرور الوقت ـ خير أستا

تعلموا على يديه الكثير !

ولكن . . وبالرغم من كل هذا ، فلقد كانت هناك عقبات

لايصلح فيها سوى الاقتحام . . .

عقبات كانت تبدو مستحيلة التجاوز !

منها ـ على سبيل المثال ـ أن اسرائيل كانت تملك ـ فى كل بلا

العالم ، ومنها البلاد العربية ، ومن بينها مصر ـ جاليات يهودية تدين له

بالولاء ، أو مع أقصى درجات حسن النية ، يدين بعضها بالولا

لدولتهم الجديدة . . . وكان هؤلاء بوصفهم مواطنين يلعبون أدوار

اقتصادية واجتماعية بل وسياسية هامة داخل هذه الدول . . . وكان

هؤلاء يستطيعون امداد اسرائيل بكل ماتحتاج اليه من معلومات عن

مصر . . . وعلى ذلك فان مصر كانت ، بطبيعة الحال ، فى حاجة الى

عيون لها فى قلب اسرائيل . . . وباختصار ، فلقد كان « حسن صقر »

و « محسن ممتاز » فى ذلك اليوم ، يبحثان عن وسيلة لايجاد « جاسوس »

يعيش فى قلب اسرائيل ، كى يمدنا بما نحتاج اليه من معلومات .



لم تكن المناقشات التى دارت فى هذا اليوم من أيام ابريل عام ١٩٥٤ قد بدأت فى هذا اليوم ، لكنها كانت قد بدأت قبل ذلك بشهور طويلة ، وكانا قد قرآ كل ما استطاعت أيديهما أن تصل اليه من تجارب حول هذا الموضوع . . . وكان الفريق الذى سافر الى الخارج فى مهمات سرية ، وانتشر فى دول عديدة فى العالم ، ومراكز تجسس كانت تغلى بما فيها من صراعات ـ قبل وقتها إن هذه المجموعة من الضباط خرجوا ليبددوا أموال الشعب على ملذاتهم بعد أن « استولوا » على البلد ـ قد استطاع أن يكون فى شهور قليلة ، أول مكتبة يستطيع الرجال أن يلجئوا اليها ويدرسوها . . . كانت هناك « عمليات » تمت اثناء الحرب العالميه ، بعضها أعلن عنه ، والبعض الآخر لم يعلن عنه . . . من هذه العمليات ، بدأت الخطوة الأولى فى التعليم .

ولقد فكرا ـ حسن صقر ومحسن ممتاز ـ فى « تجنيد » اسرائيلى . . . ولكن ، كانت أحداث الحرب العالمية الثانية قد أكدت أن « الطابور الخامس » الشهير ، والذى زرعته المانيا فى كل دول الغرب ، قد انكشف أمره بصورة أو بأخرى ، وسقطت شبكاته واحدة اثر الثانية !

ان اسرائيل تستطيع ـ بسهولة ـ أن تفعل هذا معنا ، لأن المجتمعات العربية ـ ومنها مصر ـ مجتمعات مستقرة ومفتوحة ، وفيها مواطنون يهود ، واذا كانت اسرائيل لاتضم مواطنين مصريين فإن فيها مواطنين فلسطينيين ، مواطنين عربا . . . وكان لابد ان يفكرا فى اللجوء الى مواطن عربى يعيش فى اسرائيل ، وماكادت الدراسات والمناقشات تتقدم خطوات ، حتى اكتشفا أن هذا أيضا مستحيل . . .

ذلك أن العرب الذين يعيشون فى اسرائيل ، موضوعون ـ بالضرورة ـ تحت رقابة صارمة ، ثم إنهم مبعدون ـ بالضرورة أيضا ـ عن مواطن المعلومات . . . بل إن ثمة أماكن بعينها محرم عليهم ارتيادها !!!

كان حسن ومحسن يشعران كلما أوغلا فى المناقشة ، أنّ ثمة حبلا يلتف حول عنقيهما . . . ففوق قلة خبرتيهما ، بدت الطرق أمامهما مسدودة ... فلو أنهما ـ مثلا ـ لجآ الى شخص من « جنسية ثالثة » ـ غير الاسرائيلية والمصرية ـ فإن هذا الشخص أولاً لن يكون سوى زائر ، وليس مقيما كما هو مطلوب ، وهو ثانيا لن يكون ولاؤه لمصر ، لأن ولاءه الحقيقى سيكون لعدد الجنيهات التى ستدفع له نظير عمله ومخاطرته . . . وهو ثالثا لن يكون مواطنا اسرائيليا ، ومهما بلغت الثقة فى شخصه ، فلسوف يظل فى البداية والنهاية أجنبيا ! . . . مثل هذا الشخص ، سيكون ولاؤه الحقيقى لمن يدفع أكثر !!!

وهنا هداهما التفكير الى البحث عن فدائى .

جاءت الفكرة فى لحظة من لحظات الضيق والاختناق والاحساس بالعجز أمام عقبات تبدو مستحيلة التخطى ، عندما هتف محسن ممتاز :

« مفيش غير انى أروح أنا بقى ! »

نظر اليه حسن صقر فى دهشة ، كان يعرف أن محسن ممتاز من هذا النوع من الفدائيين الذين دوخوا الانجليز فى القناة لسنوات طويلة دون أن يعرف أحد عنه شيئاً ، حكايات بلا نهاية تلك التى يحكيها الفدائيون والذين عرفوا محسن ممتاز ، عن جرأته الفائقة فى مواجهة المخاطر والموت معاً !



وفى البداية فلقد راقت الفكرة لحسن صقر . . إن الصفة الأولى والهامة والتى يجب أن تتوافر فى « الجاسوس » المطلوب ، هى الولاء المطلق لمصر . . . فهل يطمع أحد فى ولاء أنقى من ولاء محسن ممتاز ؟ !

ولكن . . . لأنهما تعلما ألا يخضعا للفكرة البراقة ، وألا يتحمسا لشىء قبل دراسته من كل الوجوه ، فلقد بدآ على الفور فى دراسة الفكرة . . . فكرة « زرع » فدائى داخل المجتمع الاسرائيلى !

دون شك كانت الفرصة متاحة !

فالمجتمع اليهودى فى مصر ـ فى ذلك الوقت ـ كبير ، منهم رجال الأعمال و أصحاب الملايين ، ومنهم عمال ومهنيون وتجار وطلبة ومدرسون وموظفون وأصحاب محلات كبرى ومحلات صغرى ومحلات بقالة و . . . و . . . وهما كانا منذ عامين قد قتلا هذا المجتمع بحثا وتحرياً حتى وصلا الى مايشبة المعرفة الكاملة به . . . وكان المطلوب الان ، هوالبحث عن وسيلة لـ « زرع » هذا الفدائى أولاً ، وسط المجتمع اليهودى فى القاهرة . . . كانت هذه بالضرورة ، هى الخطوة الأولى !

« قهوة متاتيا ! »

هتف محسن باسم هذا المقهى التاريخى والذى كانت الجالية اليهودية تتخذ من أحد أركانه مقراً للقائهم فى الخمسينيات من هذا القرن ، ومن هذا المقهى ، يمكن أن تبدأ عملية « الزرع » . . .

ولم يكن حسن صقر مختلفا مع محسن الذى ألهب الحماس أفكاره

قراءات تتدفق من بين شفتيه وكأنه عاش سنوات يفكر فى الموضوع ، كان حسن صقر موافقاً فلقد كان طبيعيا أن يظهر يهودى فى قهوة ستاتيا ، وكان سهلاً أن يحكى عن نفسه قصة شديدة الاحكام تجعله مقبولاً فى هذا المجتمع ، كما أنه سيصبح من الطبيعى أن يتعرف إلى بنى جنسه الجدد ، وأن يصنع لنفسه عملاً أو وظيفةو . . . و . . . ولكن حسن صقر كان ـ برغم مشاركته فى الحوار ـ يبدو ساهماً . . . ففى لحظة ضاق محسن ممتاز بسهومه هذا وكان متعبا فصاح فيه :

«تقدر تقول لى انت سرحان فى ايه ؟ ! »

قال حسن على الفور :

«فاكر يوم العسكرى الانجليزى ماشتمك ؟ ! »

« احنا فى ايه والا فى ايه ؟ ! »

«فاكر اليوم ده يامحسن ؟ ! »

« ايو فاكره . . . ايه بقى ؟ ! »

ايه اللى حصل ؟ ! »

لم يكن محسن من النوع الذى يحب الحديث عن نفسه ، علمته الحياة مع الفدائيين أن الذات هى آخر مايجب أن يفكر فيه الانسان الذى وهب حياته لقضية عامة ، ولذلك . . . فلقد ضاق بسؤال صديقه وإن كان ـ رغماً عنه ـ قد تذكر هذا اليوم فى السويس !

كانوا قد عهدوا اليه بعملية على درجة عالية من الأهمية والخطورة داخل المعسكرات البريطانية فى القناة ، فوضع الخطة التى بدت له محكمة ، ورتب كل شىء ، ولم يعد باقياً سوى الحصول على بعض



المفرقعات التى كان عليه أن يتسلمها فى بار احدى دور السينما فى السويس ، والتى كانت متخصصة فى عرض الأفلام الأجنبية التى يرتادها جنود الاحتلال ، ويعج بهم البار فى نفس الوقت .

فى الموعد المحدد ، وحسب الخطة التى وضعت ليتسلم بمقتضاها الشحنة الناسفة من شخص ما ، ذهب محسن ممتاز الى البار ، غير أنه حدث أن دخل الى المكان جندى يترنح من فرط السكر ، راح الجندى يتخبط هنا وهناك ، ثم . . . فى خطوة غير مقصودة ، اصطدم بمحسن ممتاز ، الذى كان مشغولاً عنه بمراقبة باب البار . . . ورغم أن محسن ابتسم له معتذراً ، فإن الجندى راح يتحرش به . . . وكان من المحتمل أن يصفح محسن عن بذاءات الجندى وسبابه مهما كان ، وهو قد تغاضى عما ناله شخصياً من سباب ، ولكن . . . أن يقول الجندى عنه إنه : « مصرى قذر » . . . فهذا مالم يحتمله محسن .

قال الجندى هذا وانقلبت الدنيا رأسا على عقب ، وبهت الحاضرون لهول الضربات التى راحت تنهال على الجندى بعنف أسال دمه وأفقده الوعى فى دقائق خاطفة . . . ومالبث محسن أن اطلق ساقيه للريح قبل أن يفيق الحاضرون من هول ماصنعه . . . فر محسن ، ولم يتسلم المفرقعات ، وأجلت العملية !

«عاوز تقول أيه ! »

أدرك محسن أن وراء سؤال صديقه ماوراءه . . فلقد نهض حسن صقر وقال وهو يتناول جاكتته استعداداً للانصراف :

« الفدائىماينفعش ! »

هم محسن بالاعتراض عندما صاح فيه حسن :

« مش أنت بالذات يامحسن ، أى فدائىماينفعش ! »

ولم تطل المناقشة بعد ذلك ، فلقد وصلت هذا المرة أيضا الى طريق مسدود . . . فالفدائى الذى لايحتمل سباب رجل سكران ، لايستطيع أن يعيش فى مجتمع الأعداء . . . لأنه هناك ، سوف يسمع عن وطنه وأهله وناسه ماقد يفقده صوابه ، بل وحياته !

ران الصمت على الغرفة . . . وسرى اليها نقيق الضفادع من الخارج ، ورفع محسن رأسه نحو رئيسه وزميله وصديقه متسائلا :

« تقدر تقول لى انت لبست الجاكيت ليه ؟ ! »

«عاوز اتفسح ! »

مرة أخرى حاول محسن الاعتراض ، فصاح حسن وهو يندفع نحو باب الغرفة :

«مش عاوز اشتغل ، تعبت ، مخى تعب ، عاوز ارتاح ولو ساعتين ! »

●●●

لأن محسن ممتاز كان ابن عمدة ، ولأنه كان أعزب ووحيد والديه ، فلقد استطاع أن يمتلك سيارة صغيرة من ماركة فرنسية كان تصميمها ـ ولايزال حتى اليوم ـ غريباً ومضحكاً ، وكانت هذه السيارة منتشرة فى مصر فى تلك الأيام . . . ولقد قاد محسن سيارته هذه فى تلك الليلة الى لاهدف !

« اطلع بينا على الدنيا ياأخى خلينا نشوفها ! »

هكذا قال حسن ، وهكذا مضت بها السيارة تضرب فى شوارع



القاهرة حتى وصلت الى وسط المدينة حيث الأضواء والناس ودور السينما والمسارح والمطاعم ، ولقد تعمدا طوال الطريق الا يتحدثا فى الموضوع على الاطلاق ، فقبل أن يركب حسن الى جواره صاح فيه :

« محسن ! »

مال هذا وهو جالس فى مقعده خلف عجلة القيادة مطلا على صديقه الذى صاح :

«قبل ماركب . . مش عاوز كلام فى الشغل خالص ! »

وهكذا ، وقد أصبحا فى شارع سليمان ـ وهو شارع دور السينما والمحلات الراقيه فى قلب القاهرة ـ راحا يمتصان الأضواء والألوان والحياة والحركة ، حتى اذا مرت السيارة باحدى دورالسينما الامريكية ، مال حسن صقر محملقاً فى الأفيش الذى كان يحوى رسوماً لجنود ومظلات وحروب وانفجارات فصاح :

« اركن يامحسن ! »

مال محسن بالسيارة وتوقف .

«تعال ندخل الفيلم ده ! »

بدا على محسن التأفف ، فلقد كان جائعا ، وكان يطمع فى الذهاب الى مطعم يسكت فيه صراخ معدته ، لكن حسن قال مقنعاً اياه :

« ماهو احنا مش حاننسى الشغل . . . وزى انا مابافكر فيه وانا قاعد جنبك ، انت بتفكر فيه وانت بتسوق العربية . . . وأنا عاوز انسى ، ولازم ننسى ، والسينما دى بتعرض فيلم عن الحرب ، تعال نتفرج علية !! »

بدا منطقه سليما تماماً ، فلانهما ضابطان سابقان فى الجيش ، ولأنهما شاركا فى حرب فلسطين ، فان فيلماً حربياً ، كان كفيلاً بان يمتص انتباههما !

دفعــا خمسة عشر قرشاً ثمناً لتـذكـرتـين فى الجـزء الخلفى من الصالة . . . ودخلا الفيلم !

و . . . .

وكانت كارثة !!

●●●

قال عزيز الجبالى للسيدة هيلين سمحون وهو يحتسى معها فنجانا آخر من القهوة المصرية التى أعجبتها . . . إن ثمة أشياء يصنعها القدر دون أن يستـطيع الانسـان أن يخضعها لقانون معين ، وأن الحضارة الغـربية بكـل مافيهـا من مادية ، تتجاهل هذا الجزء الهام من حياة الانسان دون بحث كاف واهتمام بقيمة مصادفة كتلك التى حدثت فى ذلك اليوم من الأيام الأخيرة لشهـر ابريل عام ١٩٥٤ . . . والتى كانت السبب المباشر فى كل ماسوف يقصه عليها بعد ذلك من أحداث !!

. . .    . . .    . . .    . . .

. . .    . . .    . . .    . . .

كان الفيلم يحكى قصة واقعية قرأها حسن صقر ومحسن ممتاز فى تلك الأوراق والكتب المنشورة والمستجلبة ، والتى استطاعت المجموعة التى سافـرت الى الخـارج أن تحصـل عليها ، حقاً إن الفيلم أضفى على العملية الحقيقية رونقـا ، كان هنـاك مزيد من الاثـارة ، ومزيد من



الأحداث التى جعلت من الفيلم تحفة فنية شدت المتفرجين الى المقاعد طوال مدة عرضه وقد كتموا أنفاسهم . . . كانت قصة مشهورة عن احدى العمليات التى قامت بها المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية .

فلقد كان النازيون أثناء احتلالهم لفرنسا ، قد اختاروا قصراً من قصورها الوافرة وسط الريف الفرنسى ليجعلوا منه مركزاً للمخابرات الألمانية فى فرنسا . . . وأصبح هذا القصر مايمكن أن يطلق عليه « المركز الرئيسى للمخابرات الألمانية فى أوربا كلها » . . وعلى ذلك ، فقد كان يحوى كل الوثائق الخاصة بالطابور الخامس الألمانى المنتشر فى كل دول أوروبا وكان الحصول على الكشوف التى تحمل أسماء هؤلاء الجواسيس ، قد أصبح أمراً على أكبر قدر من الأهمية بالنسبة لمسار الحرب . . . خاصة ، بعد أن علمت المخابرات البريطانية ، أن هذه الكشوف موجودة فى خزانة سرية فى إحدى غرف هذا القصر . . . وكان المطلوب ، هو الحصول على « صورة » من هذه الكشوف دون أن يشعر الألمان بذلك . . . أى أن المطلوب كان اقتحام القصر ـ سراً ـ الذى وضع تحت حراسة رهيبة طوال الاربع والعشرين ساعة ، ليس بالحراس اليقظين فقط ، وانما ايضا بكلاب متوحشة تمزق كل من تسول له نفسه عبور السور الذى أوصلوا اليه تياراً كهربائيا صاعقاً . . . ثم ، واذا ماتخطى الفدائيون هذه المواقع المخيفة ، كان عليهم أن يقتحموا القصر نفسه ـ دون أن يشعر بهم أحد ـ وأن يصلوا الى الغرفة التى تحوى الخزانة ، ثم يفتحوها ويصوروا الكشوف التى تحمل اسماء افراد الطابور الخامس فى كل دولة من دول أوروبا ، ثم يعيدوها إلى مكانها

ويغلقوا الخزانة كما كانت تماماً . . . بعد ذلك كان عليهم أن يغادروا القصر ويعودوا الى بريطانيا بكنزهم الثمين ! !

ولقد عهد الى أحد ضباط المخابرات البريطانية بهذه العلمية ، وبدأ على الفور فى اختيار الرجال ، ودراسة القصر من واقع الخرائط التى وضعت تحت يده ، درس مداخله ومخارجه وحراسه وحراسته والكشافات ومواقعها والكلاب ودوراتها . . . ثم درس الرحلة وامكاناتها والاماكن التى سيسقط فيها الرجال بالمظلات ، وأين يذهبون ثم الوصول الى القصر . . . و . . . وعشرات التفاصيل والمراحل التى تبدو مستحيلة تماماً . لكنه كان أمام واجب قومى سينقذ البلاد من نزيف للمعلومات مؤكد ، و كان لابد أن تتحول المستحيلات الى ممكنات

ولقد حدث هذا . . .

تمت الدراسات والتدريبات والتجهيزات . . . و . . . وبقيت عقبة واحدة .

كانت هذه العقبة هى الخزانة .

قالت المعلومات التى وصلت الى المخابرات البريطانية ، إن « الخزانة » من نوع متقدم للغاية ، وأنها تغلق وتفتح حسب أرقام معينة ، ولقد وجد رجل المخابرات البريطانية نفسه أمام معضلة . . . فإنه يستطيع الوصول برجاله الى الخزانة دون أن يشعر به أحد ، ولكنه كى يفتحها ، مضطر لأن يدمرها ويدمر معها العملية كلها ، فالتدمير سوف يوقظ الحراس وينبههم ، ثم إنه سوف يشى بأن الكشوف قد صورت أو سرقت ، وسوف يجد الالمان ألف وسيلة لتحذير عملائهم ،



حتى اذا وصلت هذه الكشوف الى لندن فى رحلة العودة كان هؤلاء قد اختفوا . . . ولم يكن أمام رجل المخابرات البريطانى سوى طريق واحد ، هو أن يلجأ الى « سكوتلانديارد » !

وفى زيارة لرئيس « سكوتلانديارد » ذات الشهرة العالمية ، قال الرجل إنه فى حاجة الى ضابط خبير فى فتح الخزائن . . . ولم تكن هذه مشكلة ، فهناك عدد كاف من الخبراء الذين يستطيعون فتح أية خزانة على وجه الأرض ، ولكن . . . ماهو الغرض الذى يريده هذا الضابط من أجله ؟ !

كانت العملية على أعلى درجة من السرية ، ولم يكن البوح بها سهلا ، لكن رجل سكوتلانديارد قال : إن الغرض مهم جدا لاختيار الشخص المناسب . . . وبعد حوار لم يطل كثيراً ، اقتنع رجل المخابرات وأفضى الى رجل البوليس بالمهمة . . . فأبتسم هذا قائلا :

« اذن فأنت ياصديقى لست فى حاجة إلى ضابط ! »

نظر اليه هذا فى دهشة ، فبادره رجل البوليس بقوله :

« أنت فى حاجة إلى لص !! »

وكان منطق رجل البوليس فى هذا بسيطا للغاية : إن اللص لديه احساس أكبر وأعمق بالأمن والسرية من الضابط . . . اللص عندما يسرق ، يفعل هذا وكل حواسه مشرعة لملاقاة الخطر القادم أو المحتمل ، لذلك . . . فإن أصابعه سوف تعمل فى دائرة هذا الاحساس الحاد بالأمن . . . أما الضابط ، فلسوف يستطيع فتح الخزانة حقاً ، لكن إحساسه بالأمن لن يكون فى حدة إحساس اللص ، فهو لم يسرق من قبل ، وهو لن يشعر بذلك الخوف اذا

ما انكشف أمره .
« وهل لديك هذا اللص ؟ ! »
« نعم . . . إنه فى السجن ! »
« وهل تستطيع اقناعه بالقيام بهذه المخاطرة ؟ ! »
« هذا عملك ياصديقى وليس عملى ! »
وكان رجل البوليس ، مرة أخرى على حق !
لكن الغريب أن ضابط المخابرات لم يبذل جهداً فى إقناع اللص ، فما ان عرض عليه المهمة ، حتى وافق على الفور ، فرغم أنه مسجون الا أنه أحس أن « الوطن » فى حاجة اليه ، وكان لابد له أن يلبى ، ولو كانت المخاطر تحيط بالعملية من كل جانب . . . ووافق اللص من قبل أن يسمع أنه سيصدر عنه عفو عام ، وأنه ـ لو أدى المهمة ـ سيعود مواطنا شريفا نظيف الماضى !

وهكذا بدأ اللص فى التدريب على القفز بالمظلة من الطائرة ، وعلى ماكان ينقصه كجندى أو فدائى . . . وأصبح فردا من أفراد تلك المجموعة التاريخية التى استطاعت ـ بما يشبه المعجزة ـ أن تقتحم هذا القصر ، وأن تصور الكشف كاملة ، وسقط بعدها كل جواسيس ألمانيا النازية فى أوربا .
وكان الفضل للص لديه الاحساس بالأمن أقوى من ضابط بوليس !

. . . . . . . . . . . .
. . . . . . . . . . . .

كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً ومازالت تلك السيارة الصغيرة فى مكانها من شارع سليمان باشا أمام احدى دور السينما



الأمريكية . . . فى داخلها جلس شخصان لم يكفا لحظة عن الحديث ، وكان حديثهما خافتا ، فشل الشرطى المكلف بحراسة هذا الشارع أن يسمع منه كلمة رغم مروره بجوارهما جيئة وذهابا منذ أن أغلقت دور السينما والمحلات وأطفئت الأنوار ، وبالرغم من أنه كان فى بعض الأحيان يتلكأ بجوارهما لعله يسمع شيئا مما يقولانه أويتآمران عليه فى مثل هذا الوقت من الليل ، الا أنه لم يستطع . . . ساوره الشك منذ ساعة وبعض الساعة ، لكنه فى نهاية الأمر ضاق بالمراقبة فقرر أن يحسم الأمر . . . تقدم من السيارة وانحنى نحو الجالسين فى الداخل :
« مساء الخير يابهوات ! »
التفت اليه الجالس خلف عجلة القيادة :
« مساء الخير ياشاويش ! »
على استحياء سأل الرجل :
« فيه ـ لامؤاخذة ـ حاجة ؟ ! »
« حاجة زى ايه ؟ ! »
« انتم واقفين هنا من بدرى ، والساعة بقت تلاتة ! »
هتف محسن ممتاز وهو ينظر فى ساعته ذاهلا :
« معقول ده ؟ ! »
وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً ، عندما أدار محسن موتور السيارة ، وانطلق بها وهو يعتذر للشرطى بكلمات متلاحقة وبلا معنى . . . اندفعت السيارة الفرنسية الصنع المضحكة المنظر تخترق شوارع القاهرة الخالية تماماً . . . لكن « حسن صقر » و « محسن ممتاز » كان قد استقر بهما الرأى على أنه لابد من « البحث عن آفاق » !

## الفصل الخامس

# البحث عن أفاق

قالت « هيلين سمحون » وهى تعتدل فى مقعدها وعيناها تبرقان : إن القصة تبدو لها غريبة ومثيرة للاهتمام ، حتى ولو لم تكن تدور حول زوجها الراحل ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعة هذا النوع من القصص ومايحيط بأحداثها من غموض . . . ثم اعترفت لعزيز الجبالى اعترافا بدا له مثيرا حقا ، قالت : إن حبها لديڤيد لم يتأثر بعد أن عرفت عنه ماعرفت ، وإنها حاولت - طوال الأسابيع الماضية ، ومنذ ليلة وفاته التى اعترف لها فيها بأنه مصرى وليس اسرئيليا ومسلم وليس يهوديا - حاولت أن تثور عليه وعلى ذكراه معا ، حاولت أن تغضب والا تغفر له أنه خدعها حتى ولو كان مضطرا لذلك ، لكنها لم تستطع . . . باءت كل محاولاتها بالفشل ، فلقد ظل الرجل الذى أحبته وتزوجته وانجبت منه طفلين ، ماثلا أمامها بكل حنانه ورقته وحرارة حبه وتدفقه لكن الغريب فى الأمر - هكذا قالت لعزيز وهى تدارى خجلا اعتراها - أنها

كانت تشعر كلما أوغل فى الحكاية بقلبها يدق . . . لالشىء إلا لأنها تعرف أن هذه الأحداث الغريبة سوف تقودها بالقطع نحو حقيقة زوجها ، نحو حقيقة ديڤيد شارل سمحون !

ولقد استمع لها عزيز صامتا ، حتى إذا انتهت ، غمغم بكلمات لاتعنى شيئا وهو يبتسم مجاملة . . . ثم راح يكمل قصته ! !

●●●

فى صباح اليوم التالى ، كان « محسن ممتاز » ـ رسميا ـ هو المسئول عن هذه العملية ، عملية « البحث عن أفاق ! »

ولقد يبدو الأمر بسيطا لأول وهلة رغم أنه بالقطع ليس كذلك ، فإنك قد تستطيع العثور على مئات الأفاقين فى الكثير من الأماكن المشبوهة ، فى قمة المجتمع كما فى قاعه ، ولكن . . . وفى مثل هذا النوع من العمل السرى ، يصبح البحث عن « أفاق ما » ، بمواصفات خاصة وشروط شديدة الصرامة ، أمرا عسيرا إلى حد كبير . . . وبالرغم من هذا ، فهو ليس بالطبع مستحيلا ، وإن كان يحتاج إلى الكثير من « الخبرة » حتى يستطيع الباحث أن « ينتقى » من وسط العشرات الذين سيلتقى بهم ، واحدا تنطبق عليه هذه الشروط الضرورية .

بدأ محسن ممتاز البحث فوراً ، وفى نفس اليوم ، وفى اتجاهات متعددة . . . ورغم ماكان لديه من أعمال أخرى كانت تمتص جزءا كبيرا من وقته ، فإنه أعطى لهذه العملية جهدا مضاعفا ، خاصة انه لم يكن يستطيع أن « يفصح » ـ كما كان الأمر بين رجل المخابرات البريطانى ومسئول سكوتلاند يارد مثلا ـ عن الهدف من البحث عن



مثل هذا الأفاق من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإننا لانستطيع أن نزعم أنه كان يعرف « كيف » يمكن العثور على مثل هذه الشخصية التى لابد أن تكون ـ بكل المقاييس ـ متميزة . . . ذلك أن الخبرة هنا كانت ضرورية ، وإذا كان محسن ممتاز يعلم أنه كان قليل الخبرة ، وفى نفس الوقت عاجزا عن الافصاح إلى من طلب اليهم مساعدته عن طبيعة المهمة المطلوب من أجلها هذا الأفاق ، فلم يكن لديه سوى « الاحساس » العام بالعملية كى يستند إليه فى سعيه نحو الهدف !

كان هذا الشاب الريفى المولد يعرف أنه يخوض معركة مضنية تحتاج إلى قدر هائل من السرية ، فهو لايتحرك فى مجتمع « مغلق » كالمجتمع الاسرائيلى مثلا ، لكنه كان يتحرك فى مجتمع « مفتوح » على مصراعيه لجاليات يهودية وأوربية عديدة ومنتشرة فى جميع انحاء البلاد !

ذلك أن المجتمع المصرى فى تلك السنوات ، كان « يشغى » بجاليات مع جميع أنحاء الأرض ، منها جاليات إيطالية ، ويونانية ، وفرنسية ، وبلجيكية ، وانجليزية ، وتركية ، وهندية ، وعربية ، واسبانية ، ومالطية . . . و . . . وكانت هذه الجاليات منتشرة ومنبثة فى جميع أنحاء الوطن ، من العاصمة ، وحتى أصغر قرية فيه !

ولقد كانت المشكلة التى واجهت مجموعة الضباط الشبان الذين عهد إليهم بإنشاء أول جهاز مخابرات مصرى « منظم وحديث » ، ليست فقط فى قلة المعلومات عن هذه الأجهزة وكيفية تنظيمها وأقسامها وأسلوب عملها ، فلقد كانت هذه مشكلة من الممكن ـ بالممارسة ـ التغلب عليها ، بل وإيجاد صيغة مصرية لها . . .ولكن المشكلة الحقيقية



كانت فى « قلة الخبرة » فيما يختص بأسلوب العمـل مع المندوبين أو العملاء ، واختيارهم وتدريبهم ، واقناعهم ، وما إلى ذلك من فنون كانت قد تقدمت كثيرا وبصورة فاضحة ـ إن جاز لنا أن نقول ذلك ـ عما كان معمولا به فى الأجهزة المصرية فى ذلك الوقت . . . والذى كان يزيد من صعوبة المشكلة ، هو أن إسرائيل كانت قد استطاعت إنشاء جهاز متقدم بالفعل للمخابرات ، بل لقد كان « الموساد » ـ بالقياس إلى بعض الأجهزة الأوربية ـ يعتبر جهازا فعالا ومؤثرا ، لافى المحيط الخاص بالشرق الأوسط فقط ، بل على مستوى العالم كله . . . وكان لذلـك أسبابه بطبيعه الحال ، وهى أسباب لاترجع إلى « العبقرية » اليهـودية ، كما يحاول البعض أن يروج ، وكـما يحاول الاسرائيليون أنفسهم أن يشيعوا فى العالم كله خاصة فى الدول العربية ، وإنما ترجع هذه الأسبـاب إلى ظروف تاريخية وموضوعية جعلتهم ، بالضرورة ، يكتسبون خبرة كبيرة ومؤثرة هذا المجال . . . كما كانت هناك ظروف موضوعية وقاهرة جعلت المصريين ، فى تلك الأيام ، يفتقرون إلى تلك الخبرة التى كانوا فى أشد الحاجة اليها !

. . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . .

هنا توقف عزيز الجبالى عن الحديث ناظرا نحو « فراو سمحون » نظرة من يريد أن يفصح عن شىء ، ولقد فهمت هى هذه النظرة ، ومالت نحوه مشجعة إياه على الإفصاح عما يدور فى ذهنه . . . وتحدث هو بصراحة ،قال : إنه لابد هنا من وقفة تبدو بعيدة عن تيار القصة التى يحكيهـا ، لكن الحقيقة أن أحداث أية قصة ، وقيمة أبطالها ،

وبنـاء شخصياتها لايمكن أن يتم إلا من خلال محيطها الموضوعى ، والجو العام الذى وقعت فيه . . . وعلى هذا فإن أحداث القصة وطبيعة الأدوار التى لعبها كل فرد من أبطالها ، لايمكن أن تفهم على حقيقتها إلا من خلال معرفة « الجو العام » الذى وقعت فيه .

قالت السيدة سمحون :

« إن هذا أمر طبيعى ! »

فاستطرد عزيز :

«ولهـذا فلابـد لنا من أن نعرف ، على أية أرض كان محسن ممتاز يتحرك ، وفى مواجهة أية عقبات ؟ . . . وأى مجتمع ، وبأية خبرة بدأ رأفت الهجان حركته الشديدة الخطر ؟ ! »

ولم ترد هيلين سمحون ، وانتظرت أن يكمل حديثه بعد أن يشعل السيجارة التى شرع فى تدخينها وقد استغرق فى التفكير !

. . .   . . .   . . .   . . .

. . .   . . .   . . .   . . .

ولقـد كان عزيز الجبالى فى واقع الأمر على حق ، ولم تكن هيلين سمحون تعرف ماالذى يجول بخاطره بالقطع . . . ولايستطيع أحد أن يزعم أنه يعرف ماالذى كان يشغل بال عزيز الجبالى قطعا . . . حتى ولو حللنا حديثه إلى تلك السيدة الألمانية ، فلقد كانت ثقوب المصفاة التى يحكى ماينفـذ منهـا تضيق فى بعض الأحيان إلى حد كبير . . . ولكننا قد نستطيع أن نشتم بعض ماكان يجول فى خاطره ، وإذا ماالقينا نظرة على عدد الكتب التى أخرجها الاسرائيليون ، أو من كتبوا عنهم



ولهم ، تخيلنا هذا الكم من المبالغة التى أضفوها على عبقريتهم ، وقارنا هذا الذى قيل بالواقع ، لهالنا الأمر .

وعلى سبيل المثال ، فانه من تلك العناصر التى من أجلها اكتسب « الموساد » منذ البداية ، تلك الخبرة التى تحدثنا عنها . . . إن المنظمات الارهابية الاسرائيلية التى ولدت فى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل ، كانت كل منها تملك جهازا خاصا بها يعمل منذ أن بدأت ، سرا . . . لافى داخل فلسطين وحدها ، بل فى قلب الأمة العربية على اتساعها من المحيط إلى الخليج ، وفى كل دول العالم أيضا بحكم تشرذم اليهود على سطح الكرة الأرضية . . . إن أعضاء هذه العصابات جندوا من كل دول العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . . . وكان لكل واحدة منها ـ بالضرورة ـ وكـلاء منتشرون فى كل الـدنيا ، يمـدونهم بالأسلحـة والتبرعات والمعونات ، وبطبيعة الحال ، بالمعلومات . . . وكان يكفى لإسـرائيل عـام ١٩٤٨ ، أن تجتمع هذه الأجهزة الصغيرة فى جهاز واحد ، ولم يكن الأمر يحتاج إلا لجهد تنظيمى لتصبح الموساد حقيقة واقعة !

ليس هذا فقط ، بل إن « الوكالة اليهودية » التى كان لها ـ قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة ـ فروع فى جميع أنحاء العالم ، ومنها بالطبع ، الدول العربية ، لم تكن سوى جهاز مخابرات يعمل مع كل الدول ضد كل الدول لمصلحة اليهود . . . وإذا ضربنا مثلا واحدا على ذلك الدور الخطير الذى لعبته الوكالة اليهودية فى العالم ، فان مكتبها فى القاهرة ، وكـان مقره فى احـدى عمارات شارع قصر النيل ، بوسط العاصمة المصرية ، استطاع المساهمة اثناء الحرب العالمية الثانية فى كشف عدد

لا بأس به من قضايا التجسس لصالح الحلفاء . . . وربما كانت أشهر تلك القضايا وواحدة من أخطرها ، هى قضية الجاسوس الألمانى «هانز ابلر» ، الذى كان يحمل اسما مصريا هو « حسين جعفر » ـ وهو اسم حقيقى ، فلقد كان هانز ابنا لسيدة ألمانية تزوجت من مستشار مصرى أعطى لطفلها اسمه بعد أن جعله يعتنق الاسلام وبعد أن صحبه معه ليؤدى فريضة الحج ! ـ وهى قضية اشتهرت فى التاريخ المصرى ـ وفى العالم كله ـ باسم قضية الراقصة حكمت فهمى ! !

استطاع « هانز ابلر » اثنا الحرب العالمية الثانية أن يحقق نجاحات مذهلة بتوغله داخل ضباط الأمبراطورية الذين كانوا يملأون العاصمة المصرية فى تلك الأيام ، سواء الذين كانوا يأتون فى إجازة من ميدان القتال فى الصحراء الغربية ، أو المقيمون أو الذين يمرون بها فى طريقهم إلى دول أخرى ، كما استطاع أن ينمى صداقة وطيدة مع ضابط مخابرات بريطانى كان يقطن العوامة المجاورة لعوامته . . . وعن طريق ابلر هذا ـ مع زميله الذى كان يدعى « مونكاستر » والذى تخصص فى الارسال اللاسلكى ـ أحرزت الجيوش الألمانية فى الصحراء الغربية بقيادة روميل ، انتصارات هددت الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط كله . . . ولقد ضبطت إحا ى الدوريات البريطانية ـ وبطريق المصادفة البحتة ـ محطة اللاسلكى التى كانت تستقبل رسائل ابلر ، وعرفت بالتالى أن فى القاهرة جاسوسا يعمل لحساب ألمانيا ، لكنها أبداً لم تستطع الوصول اليه إلا عن طريق الوكالة اليهودية !

كان مسئول الوكالة قد تلقى من إحدى فتياته ـ وهى فتاة ليل اسمها إيڤيت ـ بلاغا عن هانز ابلر ـ الذى كان يعيش ويتحرك باسم حسين



جعفر ـ بعد ليلة واحدة قضتها معه فى عوامته الشهيرة ، كان ابلر قد اعطاها عشرين جنيها استرلينيا فى الصباح ، وهو مبلغ ـ بحساب تلك الأيام ـ كان يعتبر مهولا . . . لكنها قالت لمسئولها فى الوكالة :

« ان الرجل الذى قضيت معه ليلة الأمس يقول إنه مصرى ، لكنى متأكدة من أنه ألمانى ، فلقد سمعته يتحدث مع زميله بالألمانية ، بل وبلهجة السار ، وهو عصبى المزاج ، ومعه مال كثير ! »

وطلب إليها مسئولها فى الوكالة أن تداوم الاتصال بهذا الفتى ، وألا تبلغ أحدا عنه . . . وبالطبع نفذت ايڤيت الأوامر وظلت على اتصال بالجاسوس الذى كان يلتقى بها فى أحد النوادى الليلية ، حتى استطاعت ذات ليلة أن تحصل على « الشفرة » التى كان يستعملها فى رسائله اللاسلكية . . . وبعدها باعت الوكالة اليهودية معلوماتها للانجليز ، نظير ثمن دفعته بريطانيا التى كانت فى ذلك الوقت ، فى ورطة أكيدة !

ودون استطراد فى هذه القصة ، فإنها تكشف لنا بوضوح ، كيف كان عملاء الوكالة اليهودية ـ حتى من فتيات الليل ـ على درجة عالية من الكفاءة والتدريب . . . . فإن « إيڤيت » هذه التى قدمت نفسها لهانز ابلر على أنها فرنسية من لبنان ، أى أنها تتقن الفرنسية والعربية معا ، كانت أيضا تتقن الألمانية بكل لهجاتها بحيث استطاعت أن تعرف اللهجة التى يتكلم بها الجاسوس ، وهى لهجة إقليم السار !

كانت الوكالة اليهودية وحدها اذن ـ وعند قيام إسرائيل ـ تصلح لأن تكون نواة ممتازة لجهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة !

لكن الأمر لم يقتصر على هذا فقط .

وإذا كانت الحركة الصهيونية تستعد منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضى وحتى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، فإن الأمر الطبيعى أن تعمد هذه الحركة إلى الاستعانة باليهود فى الدول المتقدمة - انجلترا وفرنسا وألمانيا وأيطاليا والولايات المتحدة وروسيا القيصرية ثم الاتحاد السوفييتى فيما بعد - وتحثهم بصفتهم مواطنين فى هذه الدول ، على الالتحاق بأجهزة المخابرات فيها . . . ولقد خلق هذا جيلا من رجال المخابرات اليهود ، الذين ماإن قامت إسرائيل ، حتى كانوا جاهزين تماما لوضع خبرتهم - التى تحوى كل مدارس التجسس فى العالم - تحت إمرة جهازها الوليد ! . . . وعلى هذا ، فإن الموساد - فى تلك السنوات الأولى من الخمسينيات - كان جهازا حديثا حقا ، لكنه كان يضم خبرات أعرق الأجهزة ، بل وأعظمها على الاطلاق !

ثم يصبح الحديث بعد ذلك عن الجاليات اليهودية فى الدول العربية ، وتأثيرها الاقتصادى والاجتماعى بل والسياسى ، من قبيل التزيد . . . وبالرغم من كل هذا ، وجدت مجموعة الشبان المصريين الذين عهد اليهم بانشاء جهاز للمخابرات « منظم وحديث » ، نفسها أمام « غول » آخر ، هو تلك العلاقة الفورية التى أقامها الموساد مع أجهزة المخابرات القوية ، بدءاً بالمخابرات البريطانية ، ومرورا بالمخابرات الفرنسية ، ثم انتقالا إلى مايشبه الوحدة مع المخابرات المركزية الأمريكية !

وعلى هذا ، فلقد كان من السهل أن تزرع إسرائيل فى الخمسينيات ، جاسوسا له قدرات متفوقة مثل « ايلى كوهين » الذى ولد فى مصر ، وبدأت عملية زرعه فى امريكا الجنوبية ، ثم انتقل إلى سوريا كى يتغلغل فى قيادة الدولة حتى يقترب من منصب الوزير . . .



كان سهلا ، لا لأنهم كانوا يملكون الخبرة فقط ، بل لأنهم كانوا على دراية كاملة بمجتمعاتنا ، بعاداتنا وتقاليدنا . . . ولكن ، كيف يمكن للمصريين أن يعرفوا شيئا عن مجتمع لم يكن قد تشكل بعد ، ولم تصبح له سماته ومقوماته الأساسية ، كالمجتمع الاسرائيلى فى تلك الأيام ؟ !

أمام كل هذه القدرات ، كان على الرجال أن يبدءوا من الصفر . . . ليس فقط ، بل انهم كانوا يعلمون يقينا أن اشتداد موجات الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، يعطى أساليب العمل السرى - ومع تقدم العلوم والتكنولوجيا العصرية التى دخلت فجأة عصر الذرة - دفعات مهولة وتطوراً كان يطرد يوما بعد يوم . . . ولم يكن عليهم فقط مسابقة الزمن ليلحقوا بما فات بلادهم عبر عشرات السنين ، بل كان لابد من تزايد سرعة تقدمهم حتى يكونوا أقدر على الوصول إلى أحدث ماوصلت إليه أساليب هذا العلم الحديث ، وحتى يستطيعوا التعامل معه !

كان الأمر شاقا حقا ، وكان صعبا . . . لكنه - أبدا - لم يكن مستحيلا !

●●●

كان ثمة سؤال يواجه محسن ممتاز منذ البداية : « أى نوع من الأفاقين سوف يبحث عنه ؟ ! »

ولقد كان من الطبيعى أن يصبح الشرط الأول ، هو أن يكون هذا الأفاق مصريا لحما ودما . . . إن الولاء هنا هو الركيزة الأولى للفكرة التى كانت تختمر فى رأسه لحظة بعد لحظة . . . علمته نشأته الريفية كيف يصبر وينتظر - مثله مثل الفلاح المصرى - لشهور وهو يرقب

الأرض بعد أن بذر الحب ، ثم يمتع نفسه وقلبه بمنظر الزرع وهو يشق التربة لينمو . . . وبقدر ماتعطيه من رعاية ، بقدر مايعطيك من ثمر !

وهكذا راح يجرى اتصالاته بمجموعة منتقاة من الرجال الذين انتشروا فى جميع أنحاء مصر ، ولقد كان من الممكن أن يكون الأمر سهلاً لو أنه طلب إلى الرجال أن يبحثوا له عن « نصاب » أو « لص » أو حتى « قاتل محترف » ، ولكن كلمة « أفاق » هذه ، لم تكن واضحة فى أذهانهم ، كما أنه ـ هو نفسه ـ لم يكن قادرا على تحديد المعنى بشكل قاطع ونهائى .

فإذا كان الشرط الأول لهذا الأفاق أن يكون مصريا ، فلقد كان الشرط الثانى ، هو أن يصلح لأن يكون يهوديا . . . إن اليهود المصريين لهم « سحنة » خاصة ، وأسلوب خاص فى الحياة ، وروح خاصة اكتسبوها من المجتمع الذى عاشوا فيه . . إن الانسان لايستطيع أن يفرق بين المصرى إذا كان مسلما أو مسيحيا ، بل من المستحيل أن يفعل ذلك . . . لكن المصرى اليهودى كانت له سمات لايخطئها من كان على دراية بالمصريين . . . وإذا كان هذا من ناحية الشكل يجعل المهمة صعبة فإن المضمون يجعلها أكثر صعوبة . . . إن اليهودى المصرى ، مهما كانت مكانته الاجتماعية أو فقره أو غناه ، كان لابد أن يتقن ، بجانب اللغة العربية ، لغة أجنبية ـ على الاقل ـ اتقانا تاما ، ولقد كانت اللغة الفرنسية هى الشائعة بين يهود مصر ، فمن أين له بأفاق مصرى يتقن الفرنسية اتقانا تاما ، ثم لغة ثالثة يستطيع التحدث بها بيسر وسهولة ؟ !

كانت هذه السمات ضرورية فى الاختيار ، لكن محسن لم يستطع



أبدا أن يبوح بها لمن طلب إليهم البحث عن أفاق !

وكما فعل رجل المخابرات البريطانى عندما لجأ إلى سكوتلانديارد ، لجأ محسن إلى مجموعة من أصدقائه من ضباط الشرطة الذين يعملون ، خاصة ، فى المباحث !

ولأن محسن كان ذا شخصية جادة لاتعرف الهزل ، فقد تلقى أصدقاؤه من ضباط الشرطة طلبه هذا بدهشة . . . وكان طبيعيا أن يسأله أى منهم عن السبب فى بحثه عن أفاق ، وكان من المستحيل عليه أن يخبرهم . . . كل ماكان يستطيعه ، هو الجلوس اليهم ، وإدارة نوع من الحوار المرهق الذى كان ـ بجهد شديد ـ يوصله إلى مبتغاه ! .

ولم يكتف محسن بهذا ، بل نزل إلى الشارع !

وكما كان سهلا عليه أن يرتاد النوادى الاجتماعية والرياضة والنوادى الخاصة ويصل إلى ذروة المجتمع فى جولة صبور . . . لم يكن صعبا على رجل مثله أن يرتدى ملابس عامل أو سائق أو موظف صغير ، وأن يندس فى المقاهى ويرتاد البؤر ، ويختلط بنوعيات من البشر صعودا فى المجتمع إلى قمته وهبوطا إلى قاعه . . . وبالرغم من أن تجربته هذه بالذات لم تقده إلى العثور على ضالته ، فإن فائدتها بالنسبة إليه ، فاقت كل ماتصوره . . . فلقد اكتشف أن الأفاقين كانوا يكثرون كلما اقترب من قمة المجتمع ، وكم التقى فى الفنادق الكبرى والجلسات الخاصة التى تضم أسماء لامعة لفنانين وكتاب ورجال أعمال ، بنوعيات من الأفاقين كانوا يبدون للناس وكأنهم من « صفوة » المجتمع ، لكنه اكتشف أن فى أعماق الريف المصرى ، الذى هو منه ، ذكاء يصل إلى حد العبقرية . . . وفى رحلاته إلى أعماق الصعيد ، كان يلتقى بنماذج من

النصابين والمحتالين واللصوص ، يبتكرون من وسائل النصب والاحتيال مايفوق كل خيال . . . من اسوان وحتى الاسكندرية راح محسن ممتاز يتنقل بين الأسواق فى القرى والمدن الصغيرة والكبيرة ، فى الحقول ، بين المقامرين ، والهاربين من القانون ، ومهربى المخدرات ، والتجار والسماسرة ، وحتى الباعة المتجولين وأبناء الذوات وأبناء الأسر المتوسطة على حد سواء ، بحثا عن هذا « النمط » الذى كانت ملامحه ، يوما بعد يوم ، وتجربة بعد أخرى ، تكتمل فى مخيلته . . . حتى جاء عليه يوم كان يشعر أن هذا « النمط » الذى خلقه خياله ، إنما هو رجل يسعى معه وبين يديه ، يلازمه فى الليل والنهار ، يعيش معه ، يأكل ويشرب ويغضب ويفرح . . . أصبحت الفكرة شخصا ، وكان عليه أن يعثر على هذا الشخص وسط مايزيد على العشرين مليونا من البشر ، هم تعداد سكان مصر فى ذلك الوقت !

ومرت الأسابيع .

ومرت شهور دون أن يعثر محسن على ضالته . . . كان إذا التقى بشخص توسم فيه الصلاحية ، مايلبث أن يكتشف فيه عيبا أو نقصا يجعله يعدل عن اختياره فورا . . .

حتى كانت ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ .

كانت ثلاثة أشهر قد انقضت منذ تلك الليلة التى شاهد فيها ذلك الفيلم الأمريكى مع رئيسه وزميله وصديقه حسن صقر ، دون أن يعثر على بغيته . . . عاد إلى بيته بعد يوم شاق فى عمل اقتضى منه أن ينتقل من مكان إلى مكان وكان الحر لافحا ، كل ماكان يحلم به فى تلك



الليلة ، هو دش بارد يزيل العرق ، وجلباب يعطى لجسده فرصة الاسترخاء بعد يوم مضن . . . ولقد حدث هذا ، أزال عرقه وارتدى جلبابه واستعد للاسترخاء المنشود عندما دق جرس التليفون .

وكان المتحدث واحدا من أصدقائه ضباط المباحث ، وكان يتحدث من سجن الاستئناف فى حى « باب الخلق » الذى يتوسط المسافة فيما بين ميدان العتبة الخضراء ، وقلعة محمد على .

« عندى ولد غريب يامحسن عاوزك تيجى تشوفه ! »

« شكله ايه ؟ ! »

« معرفش ! »

كان الرد غريبا فاستيقظت حواس محسن :

« يعنى ايه ماتعرفش ؟ ! »

« ماعرفش حقيقى ! »

فى غضب هتف محسن :

« ماتعرفش شكله ايه ؟ ! »

« تعال شوف وانت تتأكد بنفسك ! »

« طب اسمه ايه ؟ ! »

« ماعرفش ! »

« أنت شارب حاجة ؟ ! »

« احنا قدامنا كذا اسم ماحناش عارفين اسمه الحقيقى أنهو فيهم ! »

« وده ملته ايه ؟ ! »

« ماعرفش ! »



هتف محسن مغاضبا :

« اسمع يارشدى لما اقول لك . . . . . . . . . »

قاطعه الرجل من الطرف الآخر :

« حقيقى محدش عارف إن كان مسلم والا مسيحى والا يهودى ! »

« دانت ممكن تعرف بالنظر ياأخينا ! »

« اصله ينفع كله ! »

تذرع محسن بالصبر وعاد يسأل :

« وده تهمته ايه ؟ ! »

« ماعرفش ! »

صرخ محسن وقد بدا له الأمر هزلا لاجد فيه :

« امال قبضتوا عليه ليه ؟ ! »

« مش عارفين ! »

« بقى ده كلام ؟ ! »

« ماهو فيه قدامنا كذا تهمة ، فيه نصب واحتيال ، وفيه سرقة ، وفيه تزوير . . . لكن التهم دى موجه لكذا واحد ماحناش عارفين هو مين فيهم ! »

ولأن محسن كان ذا طبيعة لاتخلط الهزل بالجد حتى مع الأصدقاء، فلقد أدرك أنه أمام حالة خاصة ، وان هذه الحالة قد تكون بغيته . . . فقال فى حسم :

« أنا جاى لك ! »

●●●

عندما وصل محسن ممتاز إلى سجن الاستئناف ، كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء ، فوجد كل شيء جاهزا . . . كان هناك وكيل النيابة ، وضابط المباحث ، ثم ضابط السجن وكاتب الجلسة . . . ومع أكواب الشاى المصرية التى قدمت للحاضرين ، عرف محسن القصة .

هو شاب فى حوالى الخامسة والعشرين من العمر ، قبضت عليه السلطات البريطانية فى ليبيا على أنه يهودى هارب من مصر اسمه « ليفى كوهين » ، لكنه كان يحمل جواز سفر أمريكيا وغير مزور باسم « جونى برات » ، وعندما وصل إلى القاهرة وأخذت بصماته ، عادت البصمات بتقرير يقول إن له اسما آخر مصريا ومسلما هو « رأفت على سليمان الهجان » ، ومن مكان آخر جاءت التحريات لتؤكد أن له سابقة تحايل فى أحد فنادق القاهرة الكبرى التى ترك فيها جواز سفر فرنسيا باسم « دانييل مارتان » ، وعندما واجهوه بذلك ، قال بفرنسية طليقة كانجليزيته الطليقة سواء بسواء : « ان هذا هو اسمى ! » . . . ثم وصلت إشارة من الاسكندرية ـ التى كان قد وصل اليها عقب ترحيله من ليبيا ـ تقول إن المذكور ـ صاحب البصمات التى أخذت هناك ـ اتضح أن له ملفا باسم «عادل مرقص سيدهم » . . . وكان الأمر محيرا تماما ، فإن التحقيقات التى اجريت معه لم تصل إلى أية نتيجة حاسمة ، فاضطروا فى النهاية إلى السؤال عنه فى البوليس الدولى ـ الانتربول ـ الذى أفاد أن هذا الشخص مطلوب فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا بتهم متعددة ، وأن هناك بضعة أسماء أخرى له . . . ولقد اعترف الفتى ، عندما عاد تقرير البصمات الأول ، أن اسمه بالفعل هو « رأفت على سليمان الهجان » ، ثم عاد وقال إن هذا



هو الاسم الذى انتحله عندما اخذوا بصماته ، وان اسمه الحقيقى هو « أحمد العلايلى » . . . وفى أحد التحقيقات قال انه مسلم ، ثم عدل عن ذلك وقال انه فى الحقيقة مسيحى ، لكنه فى مرة ثالثة قال إن الانجليز فى ليبيا كانوا على حق ، وإنه يهودى أراد الفرار من مصر !

الذى زاد من حيرة المحققين أن نظام تحقيق الشخصية لم يكن معمولا به فى مصر فى ذلك الوقت ، وكان جوازا السفر الامريكى والفرنسى وثيقتين تثبت كل منهما أنه امريكى الجنسية وفرنسى الجنسية . . . ولقد فشلت كل المحاولات والوسائل فى تحديد شخصيته أو ديانته أو هويته بشكل قاطع . . . ثم ، وعندما أعياهم الأمر ، فكروا فى الاتصال بمحسن ، فقد يصلح الفتى لأن يكون هو من يبحث عنه منذ شهور ، وقد يستطيع أن يعرف بالقطع من هو ؟!

استمع محسن بانتباه شديد لكل كلمة قيلت ، ثم استأذن فى الاطلاع على الأوراق ، وراح يقلبها ، ثم طلب إليهم عقد جلسة تحقيق عادية جدا ، يحضرها هو كواحد من الموظفين أو الضباط !

وهكذا رتبت الجلسة كما ترتب الجلسات عادة فى مثل هذه الأحوال ، كانت الغرفة التى انتقلوا اليها متسعة بعض الشىء وإن كانت خالية إلا من مائدة مستطيلة وضعت خلفها مجموعة من المقاعد بعدد الذين سيحضرون . . . وفى ركن الغرفة كان ثمة دولاب كبير متهالك تماما ، مفتوح على مصراعيه ، تبرز أحشاؤه من الملفات القديمة والجديدة على السواء . . . فى مواجهة المائدة باب يؤدى إلى ساحة السجن ، جلس وكيل النيابة وضابطا الشرطة ، واختار محسن لنفسه مكانا بجوار الكاتب فبدا وكأنه أحد مساعديه . . . كان الجميع

يرتـدون المـلابس المدنية فلا تعرف من منهم الضابط ومن منهم المـوظف . . . وكـانـوا جميعـا ـ الآن ـ يعـرفون ماالذى يريده محسن بالضبط ، فكل ماكان يريده ألا يلتفت إليه أحد ، وألا يعيره أحدهم اهتـماما وكأنه موظف قليل الشأن ، فلقد كان حريصا على ألا يشعر الفتى بوجوده بأى شكل من الاشكال ، حتى يعطى لنفسه الحرية فى التفرس والدراسة دونما شعور من الفتى بأنه محل بحث أو تفحص أو تفرس أو دراسة !

ونودى على « المتهم » !

وفتـح البـاب ودخـل شاب متوسط الطول قمحى اللون منصهر الملامح ـ إن صح التعبير ! ـ إلى حد إلى الدهشة ، يبدو وجهه وكأنك التقيت به من قبل مئات المرات دون أن يلفت نظرك ، هو وجه من تلك الـوجـوده المـألـوفة إلى الحد الذى يصبح من الصعب أن يعلق بذاكرتك . . . أنف طويل مدبب الطرف ، شفتان رقيقتان تنفرجان عن ابتسـامة لاتدرى إن كانت ساخرة هى أم بلهاء ، عينان تبدوان لأول وهلة ناعستـين وكأن صاحبهما قد تناول مخدرا مازال يسرى فى دمائة ، نابت الذقن ، مهوش الشعر ، ملابسه ليست رثة أو قديمة ، وان كان يبدو ان صاحبها لم يخلعها منذ أيام . . . بحركة لامبالية ، وخطوات بطيئة ، تقدم الفتى من الحاضرين كمن أسلم نفسه لقدر أهـوج ، فى يديه المضمـومتـين أمـامه ، قيد حديدى كانت سلسلته الصغيرة تصنع صوتا ناعما مع حركته فى الغرفة التى سادها الصمت فور دخـولـه ، خلف الفتى دخـل جندى من حراس السجن مالبث أن غادرها بعد أن طلب إليه ذلك ، على بعد خطوات من المائدة توقف الفتى ، طافت عيناه بالحاضرين وكأنه يعرفهم جميعا ويعرف ماسوف



يدور بينـه وبينهم ، وعنـدمـا مرت عيناه بوجه محسن المنزوى بجوار الكاتب كأى موظف قليل الشأن توقفت العينان برهة ، ثم التمع فيهما بريق صاحبته ابتسامة غامضة افترت عنها الشفتان الرقيقتان !

« قرب ياواد هنا ! »

تقدم الفتى خطوة أخرى نحو وكيل النيابة الذى ناداه .

« هيه . . . قول لنا اسمك ايه ؟ ! »

بدا التأفف صارخا على ملامح الفتى وهو يغمغم بصوت متكاسل :

«تانى يابيه ؟ ! »

صاح ضابط الشرطة فى غلظة :

« رد على البيه كويس يابن الـ . . . . »

فى لكاعة من لايهاب العنف قال :

« مانا قلت لكم ياحضرة الضابط ! »

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى الفتى فيها ضابط المباحث هذا ، وكان صاحبنا يرتدى ملابس مدنية :

« ايش عرفك انى ضابط ياواد ؟ ! »

ابتسم الفتى ابتسامة ساخرة كانت تغنى عن أى جواب ، عاد وكيل النيابة إلى السؤال :

« من غير لف ولادوران . رد على سؤالى . . . اسمك ايه ؟! »

« ليفى كوهين ! »

قلب وكيل النيابة فى الأوراق التى أمامه :

« يعنى مانتاش أحمد العلايلى ؟ ! »

« علايلى مين بس ياسعادة البيه ! »

لوح وكيل النيابة بجواز السفر الأمريكى :

«أمال الباسبور ده بتاع مين ؟ ! »

قال الفتى فى انجليزية سليمة :

« انه لى ياسيدى ! »

« يعنى انت جونى برات ؟ ! »

« ماهو الاسم قدام سعادتك ! »

عاد وكيل النيابة يقلب فى الأوراق التى أمامه :

« امال ايه حكاية عادل مرقص سيدهم دى ؟! »

« ده فى اسكندرية ! »

«ورأفت على سليمان الهجان ؟ ! »

« مانا قلت لسعادتك ان ده اسمى مارضيتش تصدق ! »

« يعنى أنت مسلم ؟ ! »

« وموحد بالله ! »

« مسلم واسمك ليفى كوهين ؟ ! »

« الدين لله والوطن للجميع ! »

« أنت بتهزر يابن الـ . . . . . . . . . . »

«مش ده الشعار اللى معلقاه الثورة على الجدران ؟ ! »

وانقضت الدقائق ، دقيقة وراء الأخرى ، واكتملت ساعة ، ثم ساعة ونصف !

«الباسبور ده بيقول انك أمريكانى ، وده بيقول انك فرنساوى ، والورق ده بيقول انك مصرى . . . أنت جنسيتك الحقيقية ايه ؟ ! »

« أرض الله واسعة ! »

فاض الأمر بوكيل النيابة فصاح فيه :



« يعنى أنت مين بالضبط . . . حسن والا مرقص والا كوهين ؟ ! »

وانفجر الجميع ضاحكين . . .

جاءت صيحة وكيل النيابة وسط الجو الذى كان قد توتر ، مثل نسمة انعشت الجميع ، فما أن سمعوا اسم مسرحية الفنان المصرى العظيم نجيب الريحانى هذه ، حتى وجدوا فيها متنفسا للحيرة التى أوقعهم فيها هذا الشاب الذى كان على استعداد لأن يكون حسن أو مرقص أو كوهين بالفعل . . . ظلوا يضحكون لثوان فإذا الرأس نصف الساقطة تشرع فوق العنق ، وإذا القامة المهدلة تستقيم ، وإذا العينان الناعستان تصحوان إلى بريق غريب متيقظ وأخاذ فى نفس الوقت ، ثم إذا بالفتى يلتفت نحو محسن بالذات ، ويواجهه وكأنه انسان آخر تلبس الجسد الذى كان ماثلا أمامه . . . وإذا الفتى يقول بصوت له جرس ورنين وكأنه صوت إنسان آخر غير هذا الذى كان يقف امامهم ـ طوال ساعة ونصف ـ دون تعب أوملل :

«أنا شايف إن القعدة دى لها طعم تانى غير طعم القعدات اللى تغم النفس إياها ! »

همّ ضابط الشرطة بأن ينهره وإذا به يستطرد :

« وبالشكل ده ، يبقى مفيش داعى للاساور دى ! »

قال هذا وهو يرفع يديه المصفدتين بالقيد الحديدى أمام عيون الجميع ، وإذا القيد بين أطراف أصابعه يتأرجح فى الهواء ، وإذا هو يتقدم من المائدة فى خطوة رشيقة كى يضع الاصفاد ـ مغلقة ـ فوقها وقد علت شفتيه ابتسامة مزهوة . . . وهنا ، هنا فقط ، اعتدل محسن ممتاز فى جلسته !

هتف ضابط الشرطة وهو ينهض إلى القيد الحديدى غير مصدق :

« ياشيطان يابن الابالسه . . . ! »

ابتسم الفتى وكـان الضـابط يفحص الاصفاد فإذا هى مغلقة ، استدار نحوه فإذا الفتى يبادره فى تحد :

« وياما فى الجراب ياحاوى ! »

« تقدر تعمل ايه تانى ؟ ! »

« معاك جنيه ؟ ! »

« حاتنصب علىّ يا ابن الكلب ! »

« طب وحاروح منك فين ؟ ! »

كان الفتى على حق ، فأخرج ضابط الشرطة من جيبه جنيها من تلك الجنيهات المصرية القديمة ذات اللون الأخضر والمساحة الكبيرة ، تناوله الفتى منه وهو يومىء نحو الدولاب فى طرف الغرفة :

«حادخل وراء الدولاب عشر ثوان . . . وابقى طلع الجنيه منى بعد كده ! »

بدا الأمر مثيرا تماما ، بل بدا وكأنه نوع من التحدى بين الضباط والفتى ، تبادل الجميع النظرات فعاد الضابط إلى مقعده وهو يومىء للفتى أن يفعل . . . سار هذا نحو الدولاب واختفى خلفه لعشر ثوان لم تزد ، ثم عاد إليهم وهو يرفع ذراعية قائلا :

«الجنيه معايا ، بس محدش حايعرف يطلعه منى ! »

ابتسم ضابط المبـاحث ابتسامة ساخرة وهو ينهض اليه ، تناثرت الضحكـات والتعليقـات وهـو يفتش ملابسـه قطعة قطعة ، مضت الدقائق دون أن يعثر الضابط على الجنيه ، نهض اليه ضابط السجن وراحا معا يعيدان التفتيش فى دقه المحترفين ، كان فى بذلته شق امتدت



فيه أصابعهما حتى تمزق الجاكيت واتسع الشق دون جدوى ، نظرا فى ملابسه الداخلية فلم يمانع ، فتشا فتحتى اذنيه وفتحتى انفه وطلبا إليه أن يفتح فمه ففتحه على أقصى اتساع دون أن يعثرا على الجنية . . . بدا الأمر محيرا فصاح ضابط السجن بلهجة الواثق :

« تلاقيك حطيته فى . . . . . . . . . . »

هتف الفتى مقاطعا :

« عيب يابيه ماتكملش ! »

قالها بلهجة ابن العائلات المهذب الذى تلقى تربية تمنعه من نطق فاحش أو حتى الاستماع اليه . . . و . . . . ولم يكن هنـاك مفـر من التسليم بالعجز .

« طب فين الجنيه ! »

فتـح الفتى فمـه واخـرج ضرسـين صناعيين كانا مركبين فى فكه الاسفل ، ومن تحت الضرسين الصناعيين أخرج الجنيه وكان مطويا فى دقة مذهلة ، ثم راح يفرده أمامهم طية بعد أخرى !

ولقد مضى وقت ليس بالقصير ، قدم لهم الفتى فيه عرضا سحريا جذابا . . . لم يكن العرض السحرى هو مايلفت النظر إلى الفتى بقدر ماكانت لهجته وأسلوب حديثه الذى ينم عن طبقة اجتماعية محترمة ، وتلك الكلمات الفرنسية أو الانجليزية التى كانت تتناثر وسط الحديث كما هى عادة ابناء العائلات فى تلك الأيام ، كان يشرح لهم كل لعبة ويدلهم على أصول كل خدعة وكأنه صديق قديم فلقد سقطت فجأة ، بينـه وبينهم ، كل الحـواجز . . . مر الوقت وكأنه حفل سمر ، ثم انفض وقـد انتصف الليل منذ ساعة دون أن يعرف أحد من يكون

الفتى... حسن أم مرقص أم كوهين... هل هو مصرى أم فرنسى أم أمريكى ... هل هو مسلم أم مسيحى أم أنه يهودى ؟ !

●●●

مضى بعد تلك الليلة أسبوعان !

كان محسن ممتاز قد صرح لصديقه ضابط الشرطة بعد أن انفضت الجلسة أنه لايدرى ان كان الفتى يصلح لما يريده له أم لا ، وأنه فى حاجة إلى وقت للتفكير . . . غادرهم وقد انشغل فكره بهذه الشخصية الغريبة ، بدا له الأمر وكأن القدر قد ساق اليه هدية ممتازه وشخصية مثالية . . .

كان الفتى بالفعل مصريا لحما ودما . . لكنه أيضا ، كان يتمتع بتلك السحنة التى عرف بها يهود مصر ، وهو يتقن الفرنسية والانجليزية ، أو على الأقل ، لديه حصيلة منهما تجعل اتقانه لهما أمرا ميسورا . . . وهو بقوامه هذا وصوته واسلوبه وقدرته الفذة على التلون وتطويع ملامحه لما يريد ، يصلح لأن يكون أحد أبناء الجنوب الفرنسى فيما حول مرسيليا وطولون ، ثم ـ على جانب آخر ـ كان يصلح لأن يكون واحدا من أبناء المستعمرات البريطانية قد تزوج أبوه من انجليزية وحصل بعدها على الجنسية !

كان الفتى غريبا بحق ، صالحا ـ من ناحية الشكل ـ تماما !

ولكن ، هل كان يصلح من ناحية الموضوع ؟ !

وإذا كان يصلح من ناحية الموضوع ، هل يقبل المهمة ؟ ! !

ولم تكن الاجابة عن هذه الاسئلة سهلة ، كان على محسن أن يتعرف



الى الفتى عن قرب ، كان لابد له أن يلتقى به ، أن يحاوره ، أن يسبر غوره ، أن يقتحم صدره ويتعرف على تضاريسه الحقيقية . . . وقبل كل هذا ، كان لابد من معرفة الحقيقة : فمن هو؟ ! . . . هل هو جونى برات ؟ ! . . . أم « دانييل مارتان » ، أم « أحمد العلايلى » ، أم انه « رأفت على سليمان الهجان » ، أم « عادل مرقص حمدهم » . . . كان لابد من يقين يرسو عليه : هل هو حسن ، أم مرقص ، أم كوهين ؟ !

. . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

مضى اسبوعان بعد تلك الليلة دون أن يسأل محسن صديقه ضابط المباحث عن الفتى مرة أخرى ، فأيقن هذا ، كما حدث من قبل ، أن محسن قد صرف النظر عنه !

غير أن الثابت أن أحدا من الذين اجتمعوا فى تلك الغرفة بسجن الاستئناف فى ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ ، لم يعرف شيئا عن الفتى بعد ذلك ، وبالقطع فلقد نسوه تماما مع مانسوا من وجوه الآلاف الذين مروا بهم ، فلقد جاء أمر غريب بترحيل الفتى من سجن الاستئناف إلى قسم السيدة زينب ، لكن الأغرب ، أن الاوراق التى وصلت مع الفتى إلى القسم كانت غامضة كل الغموض ، فلم يعرف أحد من ضباط القسم ماهى التهمة الموجهة إلى هذا الفتى بالضبط ، ولا لماذا نقل من سجن الاستئناف إلى هذا القسم ... ولكن ، عندما جاءت إشارة أخرى بنقله من قسم السيدة زينب إلى أحد أقسام مصر الجديدة ، بادر المأمور بترحيله فورا وقد أسعده التخلص من هذا

اللغـز . . . ولقـد تساءل الفتى لماذا يرحلونه ، ولماذا ينقلونه ، وماهي الأسباب ، وماالذى يحدث ؟ ! . . . وهو لم يجد جوابا من أحد لأن أحـدا لم يكن عنده جواب ... فى مصر الجديدة مكث الفتى أسبوعا كامـلا نقل بعده إلى قسم ثان جيزة ... وكما حدث فى السيدة زينب ومصر الجديدة ، كانت الأوراق فى قسم ثان جيزة غامضة وغريبة . . وعنـدما تساءل المأمور عن هذا الفتى وعن التهم الموجهة اليه لم يجد اجـابـة كافية . . . غير أنه بعد ثلاثة أيام أخرى وصلت اشارة ذات صبـاح إلى قسـم ثان جيزة بترحيل الفتى مع مخصـوص إلى قسم الزيتون ، وبسرعة ، نفذ المأمور الأمر ، فلقد كان سعيدابالتخلص من سجين لايعرف له تهمة ، ووصل الفتى إلى قسم الزيتون ـ والزيتون ضاحية بعيدة من ضواحى القاهرة كانت فى ذلك الوقت تبدو كأنها في مدينة أخرى ـ فى الواحدةظهرا ، ولم يدفعوا به إلى التخشيبة ، بل طلبوا إليه الانتظار ، والقيد فى يديه ، حتى يعرض على وكيل النيابة !

لكن وكيل النيابة لم يصل إلا فى صباح اليوم التالى ، ونام الفتى في تلك الليلة جالسـا على مقعـد خشبى ، وعندما مثل بين يدى وكيل النيابـة كان قد وصـل إلى حالـة من التعب والارهـاق جعلتـه زائغ العينـين ، مستعدا لأن يلقوا به فى جهنم حتى يرحموه مما هو فيه من غموض . . . لكن المفاجأة ، أن وكيل النيابة ماإن رآه حتى طلب إلى الشرطى ـ فى جفاء ـ أن يفك القيد الحديدى من يديه ، وكانت أربع وعشرون ساعة قد انقضت ويدا الفتى فى الاصفاد ، فأحس مع الراحة التى انتابته بخوف غامض . . . نظر إلى وكيل النيابة فإذا هو أمام شاب يبـدو حديث التخرج قليل الخبرة ، وكان هذا يقلب فى أوراق يحويها ملف قديم مهلهل وهو يغمغم بكلماتغير مفهومة ،ومالبث أن رفع رأسه



رنا الفتى متسائلا :

« انت أحمد العلايلى ؟ ! »

همّ الفتى بالنطق ، لكن وكيل النيابة فى تأفف من يريد أن يتخلص من يديه بأى ثمن ، راح يكتب فى ورقة من أوراق الملف وهو يقول بصوت عال :

« يفرج عنه بكفالة عشرين جنيه ! »

لم يصدق الفتى ماسمعه ، اجتاحته فرحة غريبة وطاغية ، ولكنه بالرغم من ذلك صاح :

« عشرين جنيه حته واحدة ، أجيبهم منين ؟ ! »

عادوكيل النيابـة ينـظر اليه فى ضيق عندما جاء من خلف الفتى صوت يقول :

« الكفالة جاهزة ياسعادة البيه ! »

التفت الفتى إلى الخلف فى عنف من هوت على رأسه مطرقة ، فإذا به وجها لوجه أمام محسن ممتاز . . . فغر فمه دهشة لكنه عاد ينظر إلى وكيل النيابة الذى كان يسأل محسن فى جفاء :

« انت مين ؟ ! »

« أنا ابن خالته ! »

« وحاتدفع له الكفالة ؟ ! »

أخرج محسن النقود من جيبه قائلا :

« دى مش أول مرة ياسعادة البيه »

راح وكيل النيابة يكتب فى الأوراق مكملا إجراءاته عندما هتف

محسن :

« بس دى آخر مرة وسعادتك شاهد ، دى آخر مرة ! »

لم يرد وكيل النيابة ، بدا مستغرقا فيما كان فيه ، بينما كان الفتى يبدو ذاهلا ومحسن يخاطبه غاضبا :

« انت حاتفضل طول عمرك مش نافع ، حاتفضل فاضحنا ومغلبنا لحد امتى ؟ ! »

صاح وكيل النيابة ناهرا محسن :

« اتخانقوا بره مش هنا . . . يالله اتفضل انت وهو ! »

قال هذا وهو يضغط زر جرس دخل بعدها شرطى خاطبه الشاب قائلا :

« خده ياعسكرى من هنا وخليه يدفع الكفالة ! »

. . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . .

كان الفتى قد تعرف إلى محسن منذ النظرة الأولى ، تذكر تلك الليلة فى سجن الاستئناف التى ظل بعدها يتنقل من قسم إلى قسم ومن تخشيبة إلى تخشيبة دون سبب مفهوم . . . أراد الحديث ، لكن وجه محسن المتجهم ونظراته المخيفة أوقفته ، راح الجندى يدفعه أمامه فى غلظة من مكان إلى مكان حتى تنتهى اجراءات دفع الكفالة . . . لم يجد الفتى بدا من الاستسلام لذلك القدر الغامض الذى هبط عليه من حيث لايدرى . . . . انتهت اجراءات الافراج ، وخرج الفتى فى صحبة محسن من باب القسم ولم يصدق أنه أصبح حرا . . . على بعد خطوات كانت هناك سيارة صغيرة فرنسية الصنع مضحكة المنظر ، دار محسن حولها وهو يقول فى جفاء من انتوى شرا :



« اركب ! »

ركب الفتى إلى جوار محسن الذى بدت السيارة صغيرة على جسده المتنامى ، انطلقت السيارة إلى حيث لايدرى ، كان كل مافعله أن أسند رأسه إلى يده فى إرهاق ، ماان مضت بهما السيارة بضع عشرات من الامتار حتى التفت إلى محسن متسائلا :

« معاك سجاير يابيه ؟ ! »

أخرج محسن صندوق سجائره والقى به فى حجر الفتى دون كلمة ، اشعل هذا سيجارة راح ينفث دخانها فى تلذذ . . . ولقد حاول فى لحظة ماأن يجرب الحديث . . . لكن نظرة خاطفة من عينى محسن الجمت لسانه . . . ولقد أيقن لحظتها أنه ـ حتى الحديث ـ غير مسموح له به إلا بإذن !

عند بقعة هادئة فى الطريق الموصل فيما بين ضاحية مصر الجديدة والقاهرة ، وبجوار شريط الترام الذى كان يطلق عليه « الترام الأبيض » ، وكان يربط ـ فى ذلك الوقت ـ ضاحية هليوبوليس بحى العباسية الشهير ، توقف محسن بالسيارة فى ظل شجرة من الأشجار المتناثرة بطول الطريق !

كان الفتى صامتا فظل صامتا لاينبس بكلمة . . . ألزمته نظرة محسن النارية حدود الأمر فلم يعصه ، التفت اليه محسن وكأنه يأذن له بالالتفات اليه ففعل ، ظل يرقبه قليلا ، راح يتأمله وكأنه يملأ منا عينيه ، ثم لاح فى العينين الناريتين شبح ابتسامة رطب جو السيار الملتهب بالقلق والتوتر ، أخيرا . . . أخيرا قال محسن بصوت آمر :

« ودلوقت . . . أنا عاوز أعرف منك حاجة واحدة بس ! »

« ايه هيه يافندم ؟ ! »
« أنت مين ؟ ! »
انتفض الفتى صائحا :
«أنت اللى مين ياسعادة البيه ؟ ! »



## الفصل السادس

# صداقة حميمة مع سوء الحظ !

قالت السيد سمحون إنها تشعر وكأنها تستمع الى خطوات التاريخ فى مكان مامن الكرة الأرضية لم يخطر ببالها أن تطأه أو تتعرف عليه. . . كان عزيز الجبالى قد انقطع عن الحديث عندما أصبح عليهما أن يستعدا لتناول طعام الغداء فى تلك الغرفة ذات الاثاث المتواضع فى جهاز المخابرات المصرية . . . أكثر ماأثار دهشتها تلك الذاكرة البلورية التى يتمتع بها عزيز الجبالى ، والتى تحتفظ بالتفاصيل فى نقاء من عاش الأحداث وشاهدها وتيقن منها . . . كان الغداء مكونا من شرائح السمك والبطاطس المقلية على الطريقة الفرنسية ، وكان هناك طبق مترع بالسلاطة الخضراء الطازجة ، ثم تلا السمك طبق من اللحم البارد المصحوب بقليل من الخضروات المسلوقة ورقائق البطاطس . . . ثم دورق ملىء بعصير البرتقال !

انقطع الحوار عندما أصبح عليهما أن ينتقلا الى تلك المائدة الصغيرة التى حملت الى الغرفة عندما أبدت السيد سمحون رغبتها فى تناول الغداء فى نفس الغرفة حتى لاتنقطع عن « الجو » الذى اجتذبها اليه عزيز الجبالى . . . ماإن جلست الى المائدة حتى ضحكت ، ورفع عزيز عينيه اليها فقالت :

« أنكم حتى تعرفون مم تتكون وجبات طعامى ! »

ابتسم عزيز فى خجل غير مصطنع ولم يرد ، فاستطردت :

« لو أن احدا قال لى إنى سأتناول غدائى ذات يوم فى أى جهاز من أجهزة المخابرات فى العالم ، حتى ولو كان جهاز المخابرات الألمانى ، لاتهمته بالجنون ! »

غمغم عزيز بصوت خافت وإن كانت نبرته شديدة الوضوح :

« إن الحياة أكبر من أن نحتويها ياسيدتى ! »

كان الشاب الذى يقدم لهما الطعام ريفى الملامح الى درجة تدعو الى الدهشة والاحساس بأنه لم يغادر حقله الا بالأمس . . . ورغم هذا ، فلقد راح « يخدِّم » عليهما وكأنه واحد من جرسونات أفخم المطاعم الباريسية !

لاحت للسيدة سمحون فكرة راودتها أثناء حديث عزيز فلم تشأ أن تقاطعه ، توقفت عن الطعام فتوقف هو الآخر ، تلاقت نظراتهما فاذا هى تسأله :

« اين كنت طوال تلك الاحداث ؟ ! »

« على الحدود المصرية الفلسطينية ! »

عادت الى الطعام فأكمل :

« كنت ملازما فى الجيش المصرى ! »



رفعت اليه عينين متسائلتين فأجابها قبل أن تنطق :

« كان للمعركة هناك وجه آخر ! »

أدركت ماكان يعنيه فعادت إلى الطعام . . . لاحت منها نظرة اليه بدا مستغرقا فى حلم طويل . . . لزمت الصمت لدقائق ، لكن الحديث سرعان ماأتصل من جديد بعيدا عما كانا فيه ، راحا يدردشان حول السياحة فى مصر وإمكان إقامة مشروعات سياحية تساعد على جذب المزيد من السائحين ، ولقد كان عجيبا بالنسبة لها ، أن تكتشف فى حديث عزيز ، معرفة تكاد تكون شاملة عن السياحة وأساليبها . . . و . . وانتهى الطعام ، ورفعت الاطباق وجاءت القهوة ومعها عدد لابأس به من حبات البرتقال المصرى الفاخر . . . ومالبث عزيز الجبالى أن عاد إلى حكايته من جديد !

● ● ●

كان الموقف غريبا بحق ، الضابط والفتى فى طريق عام ، فى سيارة صغيرة مضحكة المنظر ومنتشرة بين شباب مصر من الطبقة الوسطى فى تلك الايام ، تحت ظل شجرة من تلك الأشجار الوارفة التى تميز الأحياء الراقية أو الطرق المؤدية اليها فى قاهرة ذلك الزمان . . . كانا جالسان فى هدوء بحيث اذا شاهدهما إنسان ، لايمكن أن يقول إلا أنهما صديقان فى انتظار شخص أو شىء أو موعد . . . وذلك ، بالرغم من أن كلا منهما لم يكن يعرف من يكون الآخر ، وكانا قد افصحا عن ذلك عندما سأل كل منهما الآخر : من أنت ؟ !

أحدهما يريد التيقن من عشرات الأسئلة التى تضطرم فى رأسه ، يريد التيقن أولا وقبل كل شىء ، من احتمالات الصدق والكذب عند

الفتى ! . . . هل سيصدقه القول أم يزوغ ويروغ ويتلاعب بالموقف واللفظ والحدث معا ؟ ! . . . يتمنى بداية تقوده الى حيث يخدمان معا وطنا هو فى أشد ما تكون الحاجة الى خدماتهما . . . وهو فى تحسسه الى تلك البداية يختار الخطوات فى عناية ودقه بالغتين . . . يعلم يقينا أنه يروض وحشا كامنا فى صدر الفتى ، ولو أنه أحس للحظة واحدة بأن القبضة ليست محكمة ، فلسوف يدمر الأحلام جميعا . . . وأن عليه كما يفعل مدرب الوحوش فى السيرك ، أن يسمع الأسد فرقعة السوط فقط دون أن يقترب السوط منه أو يلمسه ، إن الفرقعة هى التى ترعب الأسد وتخيفه ، لكنه لو ذاق لسعة السوط مرة ، فلسوف يكتشف أن الأمر هين ، وليس فى حاجة الى خوف ، ولكانت هذه هى النهاية !

أما الثانى ، فكان - لأول مرة فى حياته - يتخبط أمام مجهول عليه أن ينزع عنه أستاره . . . يتساءل الفتى فيما بينه وبين نفسه من يكون هذا الرجل ذو النظرة الرهيبة والابتسامة الساحرة فى نفس الوقت ؟ ! . . . هذا الرجل الذى اخرجه من السجن ، ونجاه من ورطة ، وأعطاه حريته دون سبب معلوم ، ثم . . . ثم هو لايعرفه ، لايعرف اسمه ولاعمله ، ولاهويته ، ولا ماالذى يريده منه . . . ينظر إلى ملامحه مستعينا بكل ماأوتى من خبرة وذكاء فطرى ومكتسب ، فيكاد يقسم أنه ضابط . . . ولكن ، أى نوع من الضباط هو؟ . . . أى نوع من الضباط هذا الذى يفرج عنه ويجلسه بجواره فى السيارة ويجلس معه فى الطريق العام بلا حراسة ولاتهديد ولا حتى حيطة . . . فهو ، الآن ، يستطيع أن يفتح باب السيارة بسرعة لايتخيلها هذا الجالس الى جواره ، وان يطلق ساقيه للريح ، ولن يلحق به هذا الضابط حتى ولو



استعان بعشرة/سيقان مع ساقيه . . . وبالرغم من هذا فانه لايفعل . . . فلماذا ؟ !

لو أنه - فقط - يعرف ما الذى يريده منه هذا المجهول لاستطاع أن يلاعبه ويلاغيه !

« أوعدك انك حاتعرف كل حاجة فى وقتها ! »

هكذا قال محسن ردا على التساؤل الصارخ فى عينى الفتى ، ولم يخف هذا دهشته فتساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا الضابط يقرأ أفكار الناس ؟ !

« قول لى بقى انت مين ؟ ! »

أحس برغبة عارمة فى الاستسلام :

« شوف ياسعادة البيه . . . كل اللى قلته قبل كده كان مراوغة ! »

رفع محسن حاجبيه فور سماعه لكلمة « مراوغة » هذه التى لم تكن من الكلمات الدارجة التى تعود المصريون على استعمالها فى تلك الأيام ، لاحظ الفتى دهشة محسن فصاح مؤكدا :

« ايوه مراوغة ، وماكانش فيه غير حاجة واحدة بس هى اللى صح . . . . والغريبة انهم مارضيوش يصدقوها ! »

« ايه هى ؟ ! »

« ان اسمى رأفت الهجان ! »

عندها - لدهشة الفتى البالغة - اجتاحت وجه محسن ابتسامة واسعة وسعيدة ، ظنها الفتى سخرية منه فهتف محتجا :

« طبعا أنا عارف انك مش حاتصدقنى وحاتقول انى نصاب ! »

لم يرد محسن وظلت ابتسامته معلقة فوق شفتيه .

« ده اسمى فعلا ياسعادة البيه . . . اسمى رأفت على سليمان